د. مجدي مصطفى الهواري

Telegram: @mbooks90

أدب ساخر

حلقات في سلسلة مكسورة

روايات مصرية للجيب

حلقات

في سلسلة مكسورة

مصنف مصري مائة في المائة، لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أية قصص أوربية.

مصنف من ابتكار

الأستاذ: حمدي مصطفى

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقي أو الإلكتروني.

وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر ورقي أو إلكتروني دون الحصول على تصريح كتابي من الناشر، يعرض المرتكب للمساءلة القانونية.

تصميم الغلاف: حسام الدين مصطفى

الشركة العربية الحديثة.. منفذ البيع: 4 شارع الإسحاقي - منشية البكري - القاهرة.

ت: 22586197 (02) / 24550499 (02)، فاكس: 22596650 (202) +

www.rewayatmasreya.com facebook.com/rewayatmasreya @rewayatmasreya

النادلة

أرفع حاجبي دهشةً واستفهامًا واستنكارًا.. أنظر ناحيته وأثبّت نظري عليه دون أن يرمش لي جفن.. أنتبه إلى أنه لا يلتفت إليّ كما يجب.. أرفع حاجبي أكثر وأزوم قليلًا:

- ماذا؟

- ماذا؟ ما هذا؟

- هذا؟ هذا راتبكِ.

- لا أعتقد ذلك.

- بل هو ذلك.

- وما الذي حدث له؟ ما الذي أصابه ليصير هكذا؟

- هكذا؟

- أقل، أصغر، أضأل.

يشير إلى الأعلى وهو يهز كتفيه.

- الله أعلم؟ أهذه هي إجابتك؟

ينظر إليّ بثبات ثم يشير بيده إلى الكاميرا المثبّتة قرب السقف.. «قلت لك إن الوضع سيختلف مع تركيب الكاميرات الجديدة.. لا مجال للخطأ.. إنهم، في الإدارة، يرون كل شيءٍ الآن».

- وماذا يعني ذلك؟ أتقضون الوقت في مراقبتي، وأنا أروح وأجيء؟ ثم ما علاقة هذا بالمرتب المتضائل؟

يُخرج من درج المكتب عدة أوراق، ويبدأ في القراءة بصوتٍ عالٍ: «في اليوم الثالث من الشهر، وفي تمام الساعة الواحدة ظهرًا، قمت بتقديم كوب ماءٍ للجالس

إلى المنضدة رقم أربعة».. أقاطعه: «وماذا في ذلك؟ أليس هذا عملي؟».

- دعيني أكمل.. وأثناء سيرك بالكوب، تبين لك أن الكوب مليءٌ بصورةٍ مبالغ فيها، وأنه قد ينسكب منك أثناء الحركة.. وهو ما بدأ يحدث فعلًا في الواحدة ودقيقتين.. وبناء على ذلك قمت بارتشاف بعض الماء من الكوب، ثم مسحت آثار أحمر شفاهكِ من على حافته.. قمت بعد ذلك وبكل براءة، بتقديمه للعميل الغافل.

- حسنًا.. أعني.. لا أذكر تلك الواقعة.

- إنها مسجلة على شرائط المراقبة.

- و...؟

- وفي اليوم الرابع من الشهر، وفي الساعة الثانية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة، تشاجرتِ مع العميل الجالس في الطاولة رقم ستة، مع أنها ليست من الطاولات المخصصة لكِ لتخدميها.

- أذكر هذه الواقعة.. كان الرجل ينظر إلى نظرات كلها قلة أدب.

- الرجل كان يبلغ الرابعة والتسعين من عمره، فاقد البصر بنسبة 98 بالمائة، وكان يجلس مع ثلاث من بناته وأربعة من أحفاده.. مرفق هنا صورة البطاقة الشخصية، وتقرير طبي عن حالة الإبصار لديه، وشهادات ميلاد بناته وأحفاده.

- ...

- كل شيء مسجل صوتًا وصورة.

- ما زلت أصر...

- في اليوم الخامس من الشهر، وفي الساعة التاسعة وأربع دقائق، قمتِ بتقديم شطائر فول وفلافل مع بعض المخلل، إلى العميل الجالس إلى المنضدة رقم ثلاثة.

- وماذا في ذلك؟

- كان الرجل قد طلب، كما هو واضح من التسجيل الصوتي، «بيض عيون ملح

قليل فلفل كثير»، مع كوب شاي بدون سكر.

- جلّ من لا يسهو.

- ولكنكِ قلتِ للرجل ساعتها، كما هو مدون بالحرف: «هذا هو ما لدينا الآن! إذا لم يعجبك فالباب واسعٌ بما فيه الكفاية ليمر جملٌ من خلاله».. مع علمك التام أن باب المطعم ليس عريضًا بالدرجة الكافية ليمر جملٌ من خلاله.

- لا أذكر...

- وأثناء خروج الرجل وهو يُرغي ويُزبد، قمت بعمل بعض الحركات البذيئة، غير اللائقة على الإطلاق مستخدمةً... هل أدخل في التفاصيل؟

- لا.. لا داعي.. لقد بدأت أتذكر.

- وفي اليوم السادس من الشهر، وفي الساعة...

- حسنًا.. حسنًا.. فهمت الفكرة.

- احمدي الله أنهم لم يقوموا بطردك! لقد تدخلت بكلمتين، ولكن عليك الحرص أكثر من الآن فصاعدًا!

- شكرًا لك.

- حسنًا.. والآن إذا أردت تعويض النقص في راتبك، فهناك طرقٌ لذلك.

- ماذا؟ كله إلا الحرام.. لا يمكن أبدًا.. البنت ليس لها سوى شرفها.. عيب عليك أصلًا أن...

- ماذا؟ مهلًا.. ما.. من قال شيئًا عن الحرام؟

- أتريدني بالحلال إذن؟ ولكنك متزوج ولديك ابنة في مثل عمري، فأنت أكبر مني بعشرين سنة على الأقل.. ثم إن صحتك لا تسمح لك بالزواج ثانيةً.. انظر إلى بطنك المتدلي أمامك، وإلى شعرك الذي خف معظمه، وتحول الباقي منه إلى الأبيض ثم رائحة...

- ما.. هذا؟ أرجوك! إنما كنت أقصد، أن تقومي بعملٍ إضافي عندنا في المطعم، لمدة ساعتين إضافيتين يوميًا بعد العمل الأساسي، وتتسلمين مكافأةً عن ذلك.

- ماذا؟ عفوًا.. أعتقد أن علي الذهاب الآن.. لقد تأخرت.

- نعم.. أعتقد ذلك.

- ولكن سأعود غدًا، أليس كذلك؟

- للأسف، نعم.

أتجه في ارتباكٍ وتخبط صوب الباب.. قبل أن أصل إليه تمامًا، أتذكر ما نسيت.. ألتفت وأعود.. ألاحظ أنه ينظر إلى بطنه، ويحاول شم ملابسه في نفس الوقت.

- عفوًا ولكني نسيت أكل الأولاد في الثلاجة.

- الأولاد؟

- نعم.. تعرف ذلك.. لن يأكلوا إذا لم أحضر لهم شيئًا.. ثم إنها مجرد بقايا طعام الزبائن.

- حسنًا.. حسنًا.

- شكرًا لك.

- ملحوظة أخيرة.

- حسنًا.

- ظهرت هذه الملحوظة في تقرير الإدارة وتحتها خط أحمر.

- حسنًا.. ما هي؟

- العلكة.. يقولون إن العلكة لا تفارق فمك، وإن منظرك وأنت تتشدقين بها لا يليق على الإطلاق.

أهمّ بإلقاء كيس الأولاد في وجهه، ولكن أتمالك نفسي وأبتسم ابتسامةً صفراء.. أخرج العلكة من فمي، وأضعها على الطاولة وأنا أقول: «حاضر.. من اليوم لن تجد العلكة في فمي أبدًا».

***

بمجرد خروجي من المطعم، أضع علكةً جديدةً في فمي.. أعرف أن كلامي مع المدير قد تسبب في تأخيري عن موعدي اليومي.. أسرع الخطى في محاولةٍ للتعويض.. تؤلمني قدماي قليلًا، ولكن لا يفتّ ذلك في عضدي.. أواصل السير بنفس المعدل.

أراهم من بعيد في الانتظار.. يندفع الجميع ناحيتي.. يقفز أحدهم عاليًا.. يدور الثاني حولي.. يلعق الصغير حذائي.. تهز البقية ذيولها في سعادةٍ وحماس.

أفتح كيس الطعام الكبير، وأخرج منه الأكياس الصغيرة، التي أعددتها لكل واحدٍ منها.. أضع لكلٍ منها كيسًا على جانب الرصيف ثم أفتحه.. يندفع الجميع نحو الطعام.. وحده الجرو الصغير لا يفعل ذلك.. يظل يلف ويدور حولي، وهو يدعوني للعب معه.. بصراحة، أعتقد أنه قد تناول بعض الطعام قبل أن أصل، مما جعله لا يهتم كثيرًا بما جئت به.. في الغالب، تناول بعض رقائق البطاطس، أو مقرمشات الذرة كغيره من الصغار.. أعتقد أن عليّ الحديث مع أمه عن ذلك الأمر.. فمثل هذه الأطعمة لا فائدة من ورائها.

Telegram:@mbooks90

تنتبه الأم أخيرًا إلى أن الولد لا يأكل معها.. تناديه.. يستمر في اللعب معي دون أن يلتفت إليها.. تناديه ثانيةً.. يستمر على حاله.. تناديه بحزم مع حركة تهديد بقدمها.. ينظر إليها ثم ينظر إليّ متأسفًا ومستأذنًا.. أبتسم.. أربت على رأسه.. يجري ناحية أمه.. أشير إليها مودعةً وأستأنف طريقي.

***

- عفوًا، ولكن هل حضرتك من سكان هذه المنطقة؟

- لا، ليس بالضبط.

- الحمد لله.

- لمَ السؤال؟ هل أنت تائه؟

- لا والله.. في الحقيقة لقد أردت أن أتحرش بك، ثم رأيت أنه من العيب أن أفعل ذلك في منطقتك.

- نعم؟ ما هذا الذي تقوله؟

- أقول إني أستأذنكِ في التحرش.. لو سمحتِ.

- ما.. ما هذا الكلام؟ هل تعرف أصلًا معنى كلمة (تحرش)؟

- طبعًا.. التحرش هو أي مضايقة أو عمل غير مرحب به، من النوع النفسي أو الجسدي أو اللفظي، ويتضمن مجموعةً من الأفعال، التي تتدرج من الانتهاكات البسيطة، إلى المضايقات الجادة.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

- إلى أقصى درجة.

- وما دمت تعرف ماهية التحرش، فلماذا...؟ أعني.. ما الذي...؟ وتستأذن؟

- طبعًا.. أعتقد أن من حسن الأدب أن أفعل ذلك.

- حسن الأدب؟ ولكن التحرش هو نقيض ذلك تمامًا.. إنه قلة الأدب.

- أختلف معك هنا.. هذه نقرة وتلك نقرة أخرى.

- ابتعد عن وجهي الآن، وإلا سوف أريك كيف تكون النقرة وراء النقرة على أم رأسك!

أقول ذلك وأنا أنحني قليلًا وأمد يدي ناحية حذائي.. قبل أن أصل إليه تمامًا، أسمع صوتًا أميّزه على الفور.

- لطيف والله.. هذا الجرو يهددني.. انظري إليه وهو يظهر لي أسنانه! خائف أنا..

خائف.. ها ها ها.

أدع الحذاء مكانه وأعتدل وأنا أقول: «هذا الجرو الصغير محبوبٌ من أمه وأبيه وإخوته وأخواته وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته.. وهي لا تتركه يذهب إلى أي مكان بمفرده».

- ماذا يعني ذلك؟ ما لي أنا بـ...؟

- يعني أنها هي القادمة هناك.

ينظر إلى حيث أشير.. يرى على الفور اندفاعها ناحيتنا، وقد كشرت عن أنيابها واتخذت أوضاعًا هجومية.. يتراجع خطوتين وهو ينظر ناحيتي وناحية الكلاب، ثم يبدأ في الجري بسرعة مبتعدًا عن المكان.

تطمئن الكلاب عليّ، ثم تندفع بأقصى سرعة وراء الرجل.. لعدة دقائق بعد ذلك، يختلط نباحها بصراخ الرجل، وبأصوات كوابح وأبواق السيارات في الشارع.

***

أستأنف سيري بعد الاطمئنان على الجميع.. أصل إلى مدخل شارعنا الصغير في موعدي المعتاد.

- السلام عليكم.

- وعليكم.

- كيف الحال يا (أم عبده)؟

- الحال على ما هو عليه.

- الحمد لله.

- على كل حال.

- كيلو بطاطس لو سمحت.

- لا يوجد.

- ما هذا إذن؟

- محجوز.

- حسن.. كيلو بصل.

- لا يوجد.

- محجوز أيضًا؟

- نعم.

- حسنًا.. هل الباذنجان والكوسة والفلفل محجوزة كذلك؟

- لا.

- حسنًا.. أريد كيلو من كلٍّ منها.

- ليست محجوزة ولكن مَبيعة، وتم سداد ثمنها بالكامل.. اشترتها (أم حنفي)، ثم ناداها أحدهم فتركت الخضار عندي، وقالت ستعود بعد قليل.

- ولكن...

- بدون (لكن).. وبصراحة لو كنتِ وافقت على الزواج من الولد (عبده) ابني، لكانت الخضر بل والفاكهة، تصل إليك يوميًا وأنت جالسة في بيتك معززة مكرمة.

Telegram:@mbooks90

- هكذا إذن؟

- هكذا وهكذا وهكذا...

أتركها تتحدث وأبتعد مسرعةً، دون أن أفتح فمي بكلمةٍ أخرى.. أفكر في المرور عليها مع الكلاب في الغد.. أستغفر الله العظيم.

ألمح، أثناء سيري مبتعدةً، انعكاسي على زجاج إحدى السيارات المتوقفة.. ما شاء الله.. ما شاء الله.. لابنها (عبده) كل الحق في أن يجن بي.

***

أقترب من البيت.. أنظر إلى نافذة الطابق الأرضي.. أراها تجلس خلف قضبان النافذة وهي تنظر إلى بعيد.. أشير إليها.. لا تنتبه إليّ.. أصعد السلالم القليلة وأدق بابها.

- من بالباب؟

- أنا.

- ومن أنت؟

- جئت لدفع القسط الشهري قبل أن أصعد إلى الشقة.

- يا أهلًا وسهلًا.. دقيقة واحدة.

أسمعها وهي تفتح الأقفال العشرة، التي تغلق بها الباب.. أستعد للدخول.. أفاجأ بأنها قد أضافت ثلاثة أقفالٍ جديدة.. أنتظر حتى تفتحها كلها وتدعوني للدخول.

- يا مرحبًا.. يا مرحبًا.. وما الداعي للاستعجال؟

- حقك يا خالتي.. القسط أول كل شهر حسب اتفاقنا.. أمرّ عليك بمجرد استلامي الراتب وقبل أن أصعد إلى شقتي.

- ليت الجميع مثلك.

أمد يدي إلى الحقيبة وأخرج منها قيمة القسط.. تتناوله مني بلهفة وتبدأ في عده بسرعة.

- مضبوط.. ما لك مستمرة في البحث في الحقيبة؟ هل ستدفعين قسطًا آخر؟

- لا.. أحس بصداع.. أبحث عما يريحني.

- لدي دواء ممتاز للصداع.. يمكنني أن أعطيك علبة وأقسط لك ثمنها على ثلاثة أشهر.

- شكرًا، ولكني بالكاد أدفع الأقساط التي عليّ.

- لقد قارب قسط المكواة على الانتهاء.. يتبقى قسط الغسالة وقسط الأواني الألومنيوم وقسط قمصان النوم الشفافة.. هل أنت متأكدة أنك لا تريدين إضافة دواء الصداع؟

- لا أحب تناول الأدوية.

- عمّ تبحثين إذن؟

- علكة.. هي الوحيدة التي تريحني.

- لدي علكة بطعم الجوافة.

- الجوافة مفيدة للصدر، أما الصداع فأفضل له العلكة بالخيار.

- الخيار؟

- نعم.. هو الوحيد الذي يريحني.

- حسنًا.

- لا أجد سوى علكة بالفراولة.. أتناولها وأمري إلى الله.

أهم بالقيام فيلفت نظري وجوده: «أليس هذا بوتوجاز (أم حنفي) الذي اشترته منك مؤخرًا؟».

- نعم، هو بعينه.. تأخرت في دفع القسط لمدة شهرين متتاليين فبعثت الأولاد.. جاءوا بها وبه منذ قليل.

- ماذا؟

- هو هنا بالمحشي الذي عليه، وهي هناك في غرفة الفئران.

- ماذا؟

- حتى تتعلم الأدب.. هل أضع لك بعض المحشي؟

- شكرًا.

- هناك محشي فلفل ومحشي باذنجان ومحشي كوسة.. والحق يقال أن (أم حنفي) أستاذة في عمل المحشي.

أسمع صوت (أم حنفي) القادم من غرفة الفئران، وهي تقول: «شكرًا يا حبيبتي.. بالهنا.. هل ستقومين بإخراجي الآن؟ لدي غسيل أود الانتهاء منه».

- أي غسيل يا (أم حنفي)؟ أعرف أنك لا تقومين بالغسيل إلا في الأيام الزوجية من الشهر.. واليوم يوم واحد.

ألاحظ، منذ دخولي، أنها لا ترفع عينيها عن شيءٍ تتابعه عبر النافذة.. أشير إلى ذلك وأنا أقول: «خيرًا؟».

- انظري بنفسك!

عبر الشارع وفي شرفة الطابق الثاني، يقف شابٌ مفتول العضلات بدون قميص، ويقوم بعمل بعض التمارين الرياضية.. أنظر إليها متسائلة:

«لست وحدي التي تفعل ذلك.. بنات وسيدات الشارع كله يتابعنه.. بعضهن من أمام الستائر، والغالبية من ورائها».. أسمع صوت (أم حنفي) وهي تقول: «بصراحة.. أفعل ذلك أيضًا».

تنتبه فجأة وتقول: «بالمناسبة.. لديه أخ يعمل مدرسًا.. ينفعك يا بنت».

- ماذا؟ أنا...؟ فيم؟

- هو ليس مثل أخيه، ولكنه مدرس وكسّيب و.. بصراحة ألم يحن الوقت لاستعمال كل ما تشترينه مني بالتقسيط؟

يحمر وجهي قليلًا.. يبدأ المؤذن في الأذان للصلاة.. أتناول حقيبتي وأقوم من مكاني.

- ألن تجلسي معي قليلًا؟

- يكفيك فتى التمارين و(أم حنفي).. سلام الآن.

- ألف سلامة.. مهلًا! ألا تريدين بعض المحشي؟ يمكنك الدفع بالتقسيط على ثلاثة أسابيع.

- لا داعي.. شكرًا لك.

يأتيني صوت (أم حنفي) من الداخل: «ألف سلامة يا حبيبتي.. تحياتي للوالدة!».

- تصل إن شاء الله.. أي طلبات يا (أم حنفي)؟

- خبز وحلاوة.

- عند زيارتي القادمة إن شاء الله.. سلام.. وسلام يا حاجة.

- سلام يا حبيبتي.. فكري جيدًا.

- فيم؟

- المدرس يا بنت.. المدرس.

***

المدرس

أصفّ سيارتي بعيدًا عن مدخل الشارع.. الشارع ضيق ولا يحتمل.. بمجرد إطفائي المحرك وقبل أن أفتح الباب، أجدها أمامي.

- سلام يا أستاذ.

- سلام يا (أم عبده).

- هل أضع الأكياس في الداخل أم في حقيبة السيارة؟

- ما الذي معك يا (أم عبده)؟

- بطاطس، بصل، خيار، فلفل، كوسة، باذنجان، بطاطا حلوة، بازلاء، فاصوليا، وبرتقال.. هل يغطي هذا الموضوع أم...؟

أخرج الآلة الحاسبة وأجري عليها بعض الحسابات السريعة: «هذا يغطي درس الولد و.. ربع درس البنت».

- حسنًا.. دقيقة وأعود.

- حسنًا.

- لا تذهب بعيدًا!

- سأنتظر ولكن أسرعي.. أرجوك!

أتأكد من وضع الأكياس بطريقة صحيحة في حقيبة السيارة.. بضع دقائق وأجدها أمامي.

- تفاح وموز.

- حسنًا إلى الآلة الحاسبة ثانيةً.. هكذا تكونين قد دفعت كامل قيمة درس الولد، وثلاثة وستين بالمائة من درس البنت.

- هل أحضر مزيدًا من التفاح أم من الموز؟

- لا هذا ولا ذاك.. لقد تأخرت.. سأقوم بإضافة المبلغ المتبقي إلى حساب الدرس القادم.

- حسنًا.. شكرًا.

***

أغلق حقيبة السيارة وأهم بعبور الشارع.. ألمحه قادمًا نحوي.

- تحياتي يا أستاذ.. لم أرد التقدم منك قبل انتهاء حديثك مع (أم عبده).

- حسنًا.

- هل أنظف السيارة؟

- نعم.. وأرجو الاعتناء بغطاء المحرك.. لقد قام أحد المعاتيه بالصعود فوقه عند إشارة مرور الميدان الصغير.

- أكان يرقص فوق السيارة؟ إنها لقلة أدب.. ما الذي جرى في العالم؟ ومن الذي كان يطبل له؟

- ومن قال شيئًا عن الرقص والطبل والزمر؟ لقد كان يجري من مجموعة كلاب، ويحاول الهرب من أنيابها بالصعود فوق السيارة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء.. تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، فتحركت بالسيارة وجئت إلى هنا.

- والرجل؟

- أي رجل؟

- الرجل الذي كان يرقص.. الكلاب.. غطاء السيارة.

- وكيف لي أن أعرف؟ تحولت الإشارة إلى الأخضر فتحركت.

- و...؟

- ليس لدي وقت للمزيد من الكلام.. خذ المفتاح وابدأ التنظيف!

- تحت أمرك.

- حسنًا.

- عفوًا يا أستاذ.. سؤال سريع.

- أسرع!

- سيحضر الولد الدرس اليوم، أليس كذلك؟

- أي ولد؟

- ابن أختي.

- ذكرني بالموضوع.

- اليوم، كما هو معروف، هو اليوم التاسع عشر من أيام تنظيف السيارة، وكنت سيادتك قد قلت إن قيمة الدرس، توازي تنظيف عشرين يومًا.

- و...؟

- أقول بما أن اليوم هو اليوم التاسع عشر، وأن السيارة تحتاج اليوم إلى تنظيف زائد، نتيجة الرقص والكلاب والإشارة وهكذا.. أقول لو يمكن لسيادتك أن تسمح للولد بحضور الدرس اليوم.

- الولد أراه في الدرس.

- شكرًا يا أستاذ.

- غدًا.. كما اتفقنا، عشرون يومًا أي عشرون يومًا.. والآن لقد تأخرت.

- حـ .. حاضر.. يا أستاذ.

***

أسير على الرصيف بسرعة صوب الشارع الضيق.. يلمحني بعض الطلبة.. يشيرون إليّ بالتحية.. لا أرد عليهم.. يحييني صاحب المقهى القائم على الناصية.. أرد تحيته بإشارةٍ من يدي.. يدعوني صاحب محل الحلاقة للجلوس معه.. أهز رأسي.. يشير إلى أنه سيعدُّ لي أرجيلةً خاصة وشايًا وبعض الحلويات.. أهز رأسي أسرع قليلًا.. أستمر في السير.

أصل إلى المركز.. ألاحظ، عن بُعد، تجمع الطلبة والطالبات أمامه كالعادة.. الجميع في انتظاري.. أقترب من المدخل.. يوسع الطلبة لي طريقًا.. أشير بيدي.. يوضع الكرسي الخشبي خلف الطاولة الصغيرة بجوار المدخل.. أشير بيدي ثانيةً.. يصطف الطلبة في طابورٍ طويل.. أشير للمرة الثالثة.. يُفتح الباب من الداخل ويخرج موظف الاستقبال.. والرجل، بالمناسبة، هو نفسه عامل النظافة وحارس المركز والمسئول عن المطبخ والمتولّي للطلبات.. يقوم، كذلك، بإيصال بعض الطلبة إلى بيوتهم خاصةً إذا تأخر الوقت.

Telegram:@mbooks90

يعرف الرجل الموقف جيدًا.. مَن دفع كم ومتى.. يمر الطلبة أمامه واحدًا واحدًا.. ينظر إلى وجه الواحد منهم، ثم يشير إليّ إشارة ذات معنى متفق عليه بيننا.

هزة واحدة بالرأس: يدخل بدون نقاش.

هزتان: يدخل مع ملحوظة طريفة أقولها له.

ثلاث هزات: يدخل مع ملحوظة طريفة، وتربيتٍ على الظهر، مع تحية للوالد والوالدة.

هزة بالرأس مع النظر بعيدًا جهة اليمين: لم يدفع قيمة درس اليوم بعد، ولكنه بوجه عام منتظم في الدفع.

هزة بالرأس مع النظر بعيدًا ناحية اليسار: لم يدفع اليوم بعد، مع ملاحظة أنه من النوع المتذبذب في الدفع.

هزة بالرأس مع النظر إلى الأمام: لا يدخل.

هزة الرأس مع دوران العينين: لم ولا ولن يدخل أبدًا.

هزة مع تقطيب الجبين: يُنصح بإهانة الولد؛ حتى لا يجرؤ على الظهور أمام الباب ثانيةً.

هزة الرأس مع تحمير الوجه: يتم تلفيق تهمة للولد، ويُضرب ضربًا مبرِّحًا.

يشير إليّ الرجل بكل تلك الإشارات، وأقوم بتنفيذ تلميحاته المتفق عليها بكل دقة.. أفعل ذلك وأنا أتناول الشطيرتين اللتين يعدهما لي مع كوب الشاي المخصوص، فيما يعرف بثوت ما قبل الدروس.

المركز من الداخل مقسمٌ إلى ثلاث غرف ومطبخ وحمام وشرفة.. الغرفة الأولى مخصصة لطلبة الابتدائي.. الثانية لطلبة الإعدادي.. الثالثة للثانوي.. المطبخ مخصص لطلبة الدور الثاني الذين يعيدون السنة.. الحمام متاح للجميع دون قيدٍ أو شرط، سوى دفع رسم الدخول ثلاثة جنيهات، ورسم الخروج خمسة جنيهات ونصف.

***

تطل الشرفة على الجزء الخلفي من المبنى.. تم وضع ثلاثة كراسي بها مع بعض المزروعات والنباتات، بحيث يمكن الاستمتاع بالجلوس فيها بين الدروس، مقابل رسم بسيط لا يتجاوز العشرة جنيهات.. الشرفة مزودة بسلم خشبي، ينتهي في الممر الكائن خلف المبنى.. يمكن للطلبة استخدامه للهرب من الدروس، مقابل رسم بسيط تزداد قيمته حسب أهمية سبب الرغبة في الهرب.

أقوم باستثمار طاقة الطلبة إلى أقصى درجة.. ففي تجربةٍ رائدة أدفع طلبة الإعدادي، إلى تدريس المواد المختلفة لطلبة الابتدائي.. يقوم طلبة الثانوي، بدورهم، بتدريس طلبة الإعدادي.. أما الطلبة الراسبون فيقومون بتدريس طلبة الثانوي، شريطة عدم قيامهم بتدريس المواد التي لم ينجحوا فيها.. من ناحيتي، أقوم بالإشراف العام، والتأكد أن الأمور تسير على ما يرام.

يمر الوقت، اليوم، سريعًا.. أنتبه إلى أن الساعة تقترب من الحادية عشرة.. أهرع إلى الباب وأنا أشير بانتهاء دروس اليوم.. أتجه إلى سيارتي.. ألمح أخي في الشرفة وهو يقوم، كعادته، بأداء بعض التمرينات الرياضية.. وطبعًا وكالعادة أيضًا يفعل ذلك وهو عاري الصدر.. يلوح لي.. ألوح له.. أركب سيارتي.. وبدون أن أنظر يمينًا أو يسارًا، أتحرك بها بسرعة.

لا تسمح الظروف للبعض أن يحضر دروس التقوية في المركز.. لا أحرمهم من شيء.. أذهب إليهم بنفسي.. فالعلم كما قال عميد الأدب العربي (عباس المازني الحكيم): العلم كالماء والهواء.. من حق الجميع.

أصفّ السيارة بجوار الرصيف على مقربة من المكان.. أتجه إلى المدخل.. يحييني الحارس باحترام.. أدخل.. أسير في طريقي المعتاد بعيدًا عن مركز الأحداث.. تصل إليّ مع ذلك الأصوات واضحةً جلية.. يقابلني بعض العاملين أثناء سيري.. يحييني هذا، وتبتسم لي تلك.. الكل في الملهى يعرفني ويرحب بي.

***

أصل إلى غرفة الدرس.. أجدهم في انتظاري: الولد ابن (فكيهة) «راقصة الشمعدان»، الولد الآخر ابن (لوبا) «الراقصة اللولبية»، البنت الصغيرة ابنة السيدة (فتكات) «الخياطة»، والمندوبة المقيمة لنقابة العاملين في خدمة الراقصات، أختها الطويلة وأختها الأكثر طولًا، الولد حفيد (سماح) «مغنية الأفراح والليالي الملاح»، وأخيرًا الولد ابن «ماسح الأحذية» الخاصة بالفنانين وبالمترددين على الملهى على حدٍّ سواء.. وهو، في نفس الوقت ابن عم ملمع الأدوات الخاصة بالعروض، كالشمعدان والسيوف والمغرفة وغيرها.

يجلس الجميع بأدب.. يخرجون كتبهم.. أتابع واجبات الأمس.. أشرح بعض الدروس لكلٍّ على حدة.. يقرأ هذا.. يحسب ذاك.. تكتب تلك.. لغة عربية.. علوم.. جغرافيا.. حساب.. خط.. تاريخ...

- تريد ماما أن تراك بعد الدرس يا أستاذ.

- نعم؟ حسنًا.

***

تطل علينا (ألماظية)، راقصة الدرجة الثالثة.. تلقي تحية المساء، تتبعها بقبلة سريعة لابن أختها (فكيهة).. تنظر إليّ بعينها السليمة وتقول وهي تبتسم: «انتبه إلى هذا الولد يا أستاذ.. نريده أن يكبر ويصير طبيب أسنان».

- إن شاء الله.

- أو مهندس تكييف.

- حسنًا.

- أو مدرب أسود.

- نعم؟

- أو فيلة.

***

ربع ساعة ويحين موعد الراحة.. تدخل (رباب)، إحدى الفتيات اللاتي يقفن خلف (سماح)، مغنية الأفراح والليالي الملاح.. تقوم (رباب) بتوزيع شطائر على الأولاد والبنات.. تضع أمامي كوب شاي وقطعةً من كعك الشيكولاتة مع قطعةٍ أكبر من كعك الفانيليا بالفراولة والأناناس.

تشير بيديها عدة إشارات، يفهمها الجميع ويضحكون عليها.. بصراحة، بالرغم من أنها خرساء، إلا أنني أعتقد أنها تتحدث أكثر من اللازم.

***

نستأنف الدروس بعد ذلك.. في الجزء الثاني من الدروس نتناول اللغة الإنجليزية والتربية الوطنية والرسم.. أهتم بالجانب العملي لتلك المواد بالذات.. أراعي، بصورةٍ خاصة، كيفية نطق الحروف الإنجليزية بالطريقة المصرية، كيفية الرسم بالقلم

الرصاص دون النظر إلى الصفحة، وكيفية التعبير عن حب الوطن بواسطة الرقص البلدي مع الغناء دون صوت.

أسمع من مكاني، التصفيق الحماسي الخاص بـ (لوبا) الراقصة اللولبية.. أعرف أنها بذلك قد أنهت رقصتها.. أشير إلى الأولاد بانتهاء دروس الليلة.. أطلب من ابن (لوبا)، أن يأخذني إلى غرفتها حسب طلبها.

***

- مساء الخير.

- بل قل صباح الخير يا أستاذ! لقد اقترب الفجر.

يأتيني صوتها من خلف ستارة خلع الملابس.

- يقول الولد إنك تريدين أن تزيني.

- فعلًا.. تفضل! استرح يا أستاذ! دقيقة أغير ملابسي.

***

يسألها ابنها وهو يضع مصاصة في فمه: «هل سأنتظرك يا ماما، أم أركب مع عمو والبنات؟».

ترد وهي تخلع شيئًا بصعوبة: «اذهب أنت! قد أتأخر قليلًا».

- مع السلامة يا أستاذ.

- مع السلامة يا حبيبي.

***

لا أدري السر في ذلك، ولكن أبدأ في الإحساس بالحرارة.. تخلع قطعةً أخرى، وراء الستارة، وتضعها على كرسيٍّ صغير مجاور.

- نتعبك معنا دائمًا يا أستاذ.

- لا تعب ولا شيء.. إنه عملي.

- أعرف أنني قد تأخرت عليك قليلًا في الدفع.

- ولا يهمك.

- بل يهمني.

تضع قطعةً أخرى من الملابس على الكرسي تتبعها بأخرى فأخرى فثالثة.. من كان يدري أن الراقصة ترتدي كل تلك الملابس؟ تستأنف الحديث: «هذه الأيام العمل ليس على ما يرام.. الكل يعاني.. وطبعًا لا ذنب لك في ذلك».

- لا بأس.. الناس لبعضها.

- لقد فكرت في طريقة أعتقد أنها ستسعد الجميع.

- حسنًا.

- بصراحة، قلت في نفسي بما أنني أتمتع بمواهب خاصة، فلم لا أستثمر هذه المواهب في دفع قيمة الدرس؟

ترتفع الحرارة هنا دقيقةً بعد دقيقة.. أخلع المعطف الذي أرتديه.

- حـ .. حسنًا.

تخرج من خلف الستارة وقد ارتدت ملابسها كاملةً، بما في ذلك الحذاء وغطاء الرأس.. تتحرك برشاقة صوب طاولةٍ في ركن الغرفة بجوار الأريكة.

- وعليه.. تفضل!

- ما.. ما...؟

- اقترب وسترى كل شيء.

- نعم ولكن.. المعطف.. الحر.. الـ ...

- ضع المعطف عندك واقترب هنا!

أفعل مثلما تقول.. أقترب منها.. تشير إليّ بالاقتراب أكثر.. أفعل ذلك.. تفتح علبةً كبيرة وتضعها أمامي وهي تقول: «أتمتع بموهبة رهيبة في الطهي والطبخ.. إن مأكولاتي لا يُعلى عليها.. المحشي وحده حكاية.. أما الملوخية فأقوم بإعدادها بطريقةٍ خاصة، تعلمتها من راقصة أوكرانية، كانت معنا هنا في الملهى، قبل أن ترحل للعمل في (كازاخستان).. إن كل من يتناول منها ولو ملعقة واحدة، لا ينساها أبدًا».

- من؟ الأوكرانية؟

- الملوخية.

- مـ .. ماذا؟ نعم.. نعم.

- أعددت لك كيلو محشي ورق عنب وكيلو محشي مشكل، فلفل وكوسة وباذنجان.. أعددت كذلك الملوخية، التي لا أعدها إلا للعزيز الغالي.

- من؟

- العزيز الغالي.

- أنا؟

- طبعًا يا أستاذ.. أعتقد أن هذا يمثل حساب درس اليوم، أليس كذلك؟

- حـ .. حسنًا.

- قالت لي البنات إنه يمكنني دفع الحساب عن طريق عمل حفلة خاصة لك ولأصدقائك، نغني فيها ونرقص وهكذا يعني.

- نعم؟ ولماذا لم...؟

- قلت لهن: عيب.. إنه مدرس ابني.. وأمر كهذا لا يليق.. فأنت لك احترامك يا أستاذ.. ونحن أناس نفهم في الأصول.

- طبعًا.. طبعًا.. أعتقد أن عليّ الانصراف الآن.. لقد تأخر الوقت.

- حسنًا.. شكرًا لك.. لا تنسَ المعطف!

- حسنًا.

***

أخرج من الغرفة وقد ازدادت حرارتي.. أسير في الممر الطويل بين الغرف وأنا أحمل علبتَي المحشي وسلطانية الملوخية.. في منتصف الممر يسألني أحدهم: «أين غرفة الراقصة (لوبا) لو سمحت؟».

- نعم؟

- (لوبا).. الراقصة اللولبية.. غرفتها.

أشير ناحية الغرفة دون أن أفتح فمي.. أسمعه وهو يطرق الباب ويقول: «أنا (عبده) السباك.. جئت لآخذ حساب إصلاحات الحمام حسب الاتفاق».

أسمع الباب يفتح وأسمعها تقول له: «في موعدك تمامًا.. تفضّل! لقد وضعت كل واحدة في علبة خاصة.. وحسب الاتفاق لدينا مكرونة بالبشاميل، كفتة مشوية، حمامة محشوة بالأرز، وأخرى محشوة بالفريك.. هكذا يكون الحساب كله قد وصلك، أليس كذلك؟».

- كذلك.

***

الراقصة

أفتح الباب.. أفاجأ بالظلام الدامس.. أبدأ على الفور في التوتر. أعود خطوةً إلى الخلف.. يزداد اتساع حدقتي عيني.. تبدأ بعض حبات العرق في الظهور على جبهتي.. تتسارع دقات قلبي.

أمد يدي المرتجفة إلى حقيبتي.. أبحث بلهفة عن هاتفي.. أفكر في أنه يمكنني استخدام الإضاءة الخاصة به.. قبل أن أعثر عليه، يُضاء المكان فجأة.

- مفاجأة! كل سنة وأنت طيبة يا ماما!

أعود برأسي إلى الخلف قليلًا.. أفتح فمي ثم أغلقه.. أعتدل.. تندفع البنت ناحيتي.. تشدني من يدي.. أميل عليها.. تقبّلني على وجنتي اليمنى.. تقبّلني على وجنتي اليسرى.. تسحبني إلى الصالة.. تغلق الباب وهي تقول: «لم أرد أن أنام قبل أن أقول لك، كل سنة وأنت طيبة وبخير وفي أحسن صحة وأطيب حال، يا أمي يا حبيبتي!».

- ما كل هذا؟ شكرًا يا حبيبتي، وكل عام وأنت بألف خير.. ولكن الوقت متأخر.. لقد اقترب موعد أذان الفجر.

- وهل يأتي عيد ميلادك كل يوم يا ست الحبايب؟ ثم إن غدًا الجمعة إجازة.

- الجمعة؟ أسريعًا هكذا يمر الأسبوع؟

- والسبت كذلك إجازة.. يمكنني النوم يومين كاملين لو أحببت.

- حسنًا.. وأين أخوك؟

- نائم.. جاء من الدرس متعبًا فنام على الفور.. قال إنه يمكنني إيقاظه، في حالة وجود كعكة لعيد الميلاد من الشيكولاتة الداكنة.. غير ذلك فسيراك غدًا.

- غدًا؟ تعنين اليوم.

- اليوم، غدًا.. المهم كل سنة وأنت طيبة.

- وأين جدتك؟ أما تزال نائمةً منذ الأمس، أم أنها ذهبت للنوم مبكرًا الليلة؟

- حسنًا.. جدتي.. في الحقيقة.. أعني...

- ماذا؟ تكلمي!

- جدتي ليست هنا.

- ماذا تعنين؟ أهي عند أحدٍ من الجيران؟ وفي مثل هذا الوقت؟ لعلها عند صديقتها التي في الثالث.. لم تعجبني مِشيتها بالأمس، ثم ذلك السعال.

- لا يا ماما.. جدتي في شقتها القديمة.

- ماذا؟ وماذا تفعل في شقتها القديمة في مثل هذا الوقت بمفردها؟

- هي.. ليست بمفردها.

- ماذا تعنين؟

- هي.. مع.. زوجها الجديد.

- ماذا؟ أتزوجت؟ ثانيةً؟ متى حدث هذا؟

- الليلة.

- هل أصابها الجنون؟

- قالت لي: إن هذا ما ستقولينه عنها، ثم ضحكت وقالت وهي تتزين: مَثنى وثُلاث ورُباع.. ماذا يعني ذلك يا أماه؟

- لا يعني شيئًا.. كفَى حديثًا عن جدتك الآن.. سأعرف كل شيء عندما أراها.

- بالمناسبة هي قالت لي أن أقول لك أن تمري على عربة الفول، التي تقف أمام المسجد عند نزولك للصلاة.. تريد بعشرين جنيهًا فولًا، وبعشرين جنيهًا فلافل، وبعشرين باذنجانًا، وبعشرين بطاطس مقلية، وبعشرةٍ مخللًا.

- نعم؟

- وأن تمري عليها في البيت القديم، وتعلقي كيس الطلبات على الباب، دون أن ترنّي الجرس؛ لأنها ستكون مشغولة وفي عالمٍ آخر.

- ما هذا الكلام؟ أهي قالت لك ذلك؟

- نعم.. ماذا كانت جدتي تعني بعالمٍ آخر يا ماما؟

- يا إلهي! كفانا كلامًا عن جدتك الآن.. إن هذا الحديث يرفع ضغطي.

- ولا يهمك يا ماما.. دعينا نحتفل الآن بعيد ميلادك.. لقد أحضرت لك كعكةً صغيرة.. سنضع فيها شمعةً كبيرة، ونغني ونرقص حتى الصباح.

- أولًا نحن تقريبًا في الصباح.. ثانيًا أرجو أن تعفيني من موضوع الرقص هذا؛ فخصري وقدمي اليمنى يؤلمانِني من كثرة الـ .. كثرة الوقوف في غرفة العمليات في المستشفى.

- حسنًا.. أنت تأكلين وأنا أرقص لك و...

- لا.. لا.. لا.. لا أحب لك موضوع الرقص هذا.

- ولكن يا ماما، إنه عيد ميلادك.. هيا!

- قبل أي شيء دعيني أستحم وأبدل ملابسي أولًا.

- حسنًا وأنا سأعد الأطباق.

***

أغلق باب الحمام.. أخلع ملابسي.. أتركها تقع على الأرض.. أضبط درجة حرارة المياه.. أدير الصنبور.. تبدأ المياه في الاندفاع.. أقف تحتها.. أحرص ألا تصل إلى شعري.

أفضل، في الغالب، الاستلقاء في حوض الاستحمام.. أقضي نصف ساعةٍ مغمورة بالمياه الدافئة.. أسترخي.. أهدأ.. أنفصل عن العالم.. أدع أوجاعي وآلامي تنساب من

مسامي.. تترك جسدي وتتركني وأتركني وأذهب إلى عالمٍ بعيد.

اليوم حمامٌ سريع.. لا أريد أن أترك البنت أكثر من ذلك.. يكفيني أنها انتظرتني كل هذا الوقت.. أغلق صنبور المياه.. أجفف نفسي بسرعة.. ألتقط ملابسي من على الأرض.. أضعها في سلة الغسيل.. ألفّ المنشفة الكبيرة حولي وأخرج.

***

- على فكرة يا ماما، أرسلت (أم عبده) لك عدة أكياس مليئة بالخَضراوات.

- حسنًا.

- أهي هدية من (أم عبده) بمناسبة عيد ميلادك؟

أضحك وأقول: «لا يا حبيبتي.. لقد طلبت منها ذلك.. علينا الكثير من الفواتير والمبالغ المتأخرة.. هذه الخضراوات، بعدما أعدُّها، ستساهم في دفعها».

- ماذا تعنين؟

- أعني أنه ما دام هذا هو عيد ميلادي، وما دامت الجمعة إجازة، وما دمت سيادتك هنا، فستقومين بمساعدتي، في تحويل كل تلك الخضراوات إلى مأكولات لذيذة.

- ماذا؟

- محشي ورق عنب، محشي فلفل، محشي باذنجان أبيض، وباذنجان أسود، وكوسة، وطماطم.. محشي ملفوف، بامية، ملوخية، فاصوليا، وبازلاء بالجزر.

- أنا سأساعدك في كل هذا؟

- بعد قليل.

- أعتقد أنه كان عليّ النوم مبكرًا.

- ماذا؟

- لا شيء.. كل سنة وأنت طيبة يا ماما.

***

- مبارك للحاجة.

- الله يبارك.. ماذا؟ أوصلك الخبر سريعًا هكذا؟

- وصلني الآن معك.

- ماذا؟ كيف؟ أنا لم أقل شيئًا.

- بعشرين جنيهًا فولًا، وبعشرين فلافل، وبعشرين باذنجانًا، وبعشرين بطاطس مقلية، وبعشرة مخللًا.. هذا هو ما تطلبه الحاجة دائمًا صباح ليلة زفافها.

- يا إلهي! على العموم الله يبارك لك.

- إن شاء الله نفرح بك أنت أيضًا عما قريب.

- أنا؟ هي مرة وكفى.. لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين.

- على الأقل ترتاحين من العمل كل ليلة.

- العمل ليس عيبًا يا عم (وديع).

- طبعًا.. طبعًا.. اعذريني! ثانية واحدة.

ينزل الرجل من على الحجر الذي يقف فوقه، وهو يعد ويبيع.. يستند إلى العربة قليلًا، ثم ينحني على الأرض ويلتقط حجرًا متوسط الحجم.

- هل يمكنني المساعدة يا عم (وديع)؟

- أكثر الله من أمثالك يا ابنتي.. لو سمحت، هل يمكنك أن تجمعي لي بضعة أحجارٍ من تلك التي بجوار الرصيف؟

- حسنًا.. وما...؟

- لو سمحت.

- حسنًا.

أجمع له بضعة أحجار كما طلب.. أسلمه إياها.. ينظر إلى اثنين من الواقفين على بعد عدة أمتار فوق الرصيف.. يقول بصوتٍ عال: «لن يحدث يا أولاد الكلب».. يتبع ذلك بالأحجار التي في يديه.. أجفل مكاني.. أتراجع عدة خطواتٍ إلى الخلف.. أجعل العربة بيني وبينهما.. يصرخ أحدهما: «حرام عليك يا عم (وديع)! الهاتف لو سمحت وتوبة نصوح».

- لن يحدث.

- توبة والله توبة.

- أبدًا.

- أرجوك! نعدك بأننا لن نفعل ذلك مرةً أخرى.

- وإذا حدث؟

- افعل بنا ساعتها ما يحلو لك.

- قلة أدب وقلة تربية.

- نحن آسفان والله.. جل من لا يخطئ.

- حسنًا.. انصرفا الآن وارجعا بعد نصف ساعة!

- ولكن...

- بدون (لكن)، أم تريدانني أن أضع الهاتف في وعاء مياه الغسيل؟

- لا.. لا.. سنعود بعد قليل.. شكرًا لك.. وتوبة.. والله توبة.

***

يعود عم (وديع) إلى مكانه خلف العربة.. يجدني واقفةً هناك.. يطلب مني أن

أساعده في الصعود فوق الحجر الكبير.

- ما.. ما الذي...؟

- شباب صائع وضائع.

- ما الذي فعلاه؟

يضطرب قليلًا ثم يقول في تردد: «لا شيء.. لا شيء!».

- يا عم (وديع)! بالله عليك، قل لي!

- ولكن يا ابنتي.. أعني.. إنه أمرٌ مخجل.

- ماذا؟

- فلنقل إنهما قد أخطآ في حق واحدةٍ في مقام ابنتي.

- ماذا؟

- دعينا من هذا الأمر! تقولين فولًا وفلافل وباذنجانًا وبطاطس، بعشرين لكلٍّ منها، وبعشرة مخللًا، أليس كذلك؟

- لا تُغيِّر الموضوع يا عم (وديع)! إذا كنت غالية عليك فقل لي ما حدث! لا تكتم الأمر في نفسك!

- حسنًا.. الأمر وما فيه.. أنهما.. أعني.. يا ابنتي.. لا داعي...

- عم (وديع)!

- حسنًا.. لقد جاءا منذ قليل وطلب الطويل فيهما شطيرة فول بالشطة، وشطيرة فلافل بالطحينة.

- حسنًا.

- طلب الآخر شطيرة فول بالطماطم، وشطيرة فلافل بالخيار المخلل.. أم لعل الأمر بالعكس؟ الطويل بالطماطم، والقصير بالشطة والطحينة؟

- المهم، المهم يا عم (وديع).. ولعلمك لن أتحرك من هنا إلا بعد سماع القصة كلها.

- حسنًا.. أعددت الشطائر، وأخذا في تناولها بجوار العربة.. بالقرب من تلك الشجرة الصغيرة.. أثناء ذلك أخرج أحدهما هاتفه النقال وضغط بضعة مفاتيح، فصدحت موسيقى راقصة.. أخذ الاثنان يتابعان ما يحدث على الشاشة وهما في حالة.. في حالةٍ.. غير طبيعية.

- حسنًا.

- ثم سمعت أحدهما يقول للآخر بصوتٍ عال: «أقسم لك أنها هي».. يرد الآخر وهو يبتلع الطعام بصعوبة: «أشك في ذلك».. وتبادلا الكلام.. «بل هي».. «لا أعتقد».. «أؤكد لك».. «أشك».. التفت أحدهما إليّ وقال: «نسأل عم (وديع).. سيحسم الموقف».

اقترب الاثنان مني، ووضع أحدهما الشاشة أمام وجهي، فإذا بي أمام فتاةٍ ترتدي بدلة رقص، وترقص بكل حيويّةٍ وحماس، فيما يظهر أنه ملهًى ليلي.

- مـ .. ماذا؟

- ثم سألني أحدهما: «أليست هذه ابنة منطقتنا التي تسكن في الشارع المجاور.. الطابق الثاني.. ابنة الحاجة؟».

- مـ .. ماذا؟

- لم أتمالك نفسي وانفجرت فيهما: أولًا هي لا تسكن الشارع المجاور، بل في شارعنا هذا نفسه هناك في تلك العمارة.. ثانيًا هي تعمل ممرضة في المستشفى العام، وتسهر كل ليلة في غرفة العمليات.. ثالثًا هل من الأدب أن تفضحا ابنة منطقتكما، حتى لو كانت تعمل راقصة؟ رابعًا من أين لكما بالنقود التي تسمح لكما بالسهر في ملهًى ليلي، وأنتما مدينان لي بنصف شهر من الشطائر؟ خامسًا، واضح أن هذا عملٌ من أعمال اللعب في الصور والأفلام.. خدع وهكذا.. وسادسًا وسابعًا وثامنًا.. وأخذت منهما الهاتف وأقسمت ألا أعيده لهما.

- و...؟

- وكما رأيت لقد اعتذرا وتأسفا وتابا، ولكني طلبت منهما العودة بعد نصف ساعة حتى يتسنى لي مسح ما سجلاه؟

- حـ .. حسنًا.

- هل يمكنكِ أن تسدي لي خدمة؟

- بالطبع يا عم (وديع).

- هل يمكنك مسح هذا المقطع من الهاتف؛ إذ ليس لي في مثل هذه الأمور.. وبصراحة كنت أنوي رمي الهاتف كله في النيل، وأنا عائدٌ إلى البيت.

يقول ذلك وهو يناولني الهاتف.. أنظر إلى الشاشة وسؤال واحد يدور في ذهني: كيف قاما بالتصوير، والتصوير ممنوع عندنا في الملهى؟ لا بد من الحديث مع الإدارة.

أمسح كل شيء على الهاتف، وأعيده إلى عم (وديع).. يناولني الشطائر والمخلل وهو يقول: «لا تتعجبي لو رأيت نفسك وقد تم تصويرك في غرفة العمليات في يوم من الأيام.. إنه زمنٌ أغبر يا ابنتي.. حماك الله وأتم ستره عليك».

أشاهد، أثناء ابتعادي، الشابين إياهما وهما يتجهان ناحية عربة الفول.. أنتهز فرصة الظلام ووصولي إلى قرب الناصية، وأقوم بالقاء حجرين، بكل قوة ناحيتهما.. أسمع أحدهما يتألم، والآخر يسب ويلعن.. أبتعد بسرعة.

***

ألفّ كيس الطلبات على مقبض الباب.. أهمُّ بالانصراف.. أفاجأ بالباب وهو يفتح بعنف.. التفت.. أجده أمامي.. طويل، عريض، مفتول العضلات.. يرتدي بنطلونًا قصيرًا وفانلة داخلية بيضاء.. يصرخ في وجهي: «ماذا تريدين؟».

أتوقف مكاني.. أتمالك نفسي ثم أقول وأنا أشير إلى كيس الطلبات: «فول وفلافل وباذنجان مقلي وبطاطس مع مخللٍ».

يختفي التعبير الغاضب من على وجهه.. يبتسم وهو يقول: «آسف.. حسبتك الأولاد

الشياطين، الذين أمضوا الليلة الفائتة كلها وهم يعبثون بالجرس وبالباب».

- طلبت ماما ألا أدق الجرس.

- لم تُرد ماما أن يزعجنا أحد.

- ماما؟ تناديها بماما؟ حسنًا.. أستأذن...

- ألن تباركي لنا؟

- نعم.. عندما أرى ماما إن شاء الله.

- أعتقد أنني الآن، وما دمت قد تزوجت أمك، فأنا قد صرت بابا، أليس كذلك؟

- بابا؟ بالله عليك.. واضح أنك أصغر مني سنًّا.. بكثير.

- لم تكن ماما مخطئة.

- ماذا تعني؟

- ماما قالت إنك عصبية.

- أعتقد أن عليَّ الانصراف الآن.

- ثانية واحدة.. لقد جئت بالفول والفلافل والـ ...

- والباذنجان والبطاطس والمخلل.

- أين المياه الغازية إذن؟

- نعم؟

- مياه غازية.. كولا أو برتقال.. لا أحب غيرهما.

- كما قلت لك.. أعتقد أن عليَّ الانصراف الآن.

- ولكنك ستعودين بالمياه الغازية، أليس كذلك؟ لا يمكنني ابتلاع الأكل من دونها.

- لقد جئت بما طُلب مني.. تصرَّف فيما هو غير ذلك بمعرفتك.

- ماذا؟ ليس من المعقول، أن أطلب أن تُرسل لي المياه الغازية، مع عامل التوصيلات، في مثل هذا الوقت المبكر.. أم لعله المتأخر؟ كم الساعة الآن أصلًا؟

أنزل السلم وأنا أصر على أسناني.

***

عامل التوصيل

موظف في الحكومة، مراقب صحي، فني إصلاح وتركيب أي شيء، مشغل ألعاب في مدينة ملاهٍ، مسئول شئون عاملين، شئون عاملات، مثبّت تيار في شركة الكهرباء، محكّم في مسابقة للطهي أو للرقص البلدي، مذيع لمباريات كرة القدم في إذاعة مغمورة، مربي عجول أو أجيال، مسئول عن تركيب إعلانات على أعمدة الشوارع، ناقد فني، مراجع رصف طرق، مدرب كلاب.. كل هذه المهن دارت في ذهني وكنت على استعدادٍ للعمل في أيٍّ منها.. أما عامل توصيل هذه، فلم تكن على البال ولا على الخاطر.

كان والدي، وما يزال، يعمل في توزيع البريد.. يقوم في الصباح الباكر بارتداء الزي، الذي حدده لنفسه.. بنطلون رمادي، قميص رمادي، وجورب رمادي.. يضيف إلى ذلك في الشتاء جاكتًا ذا لونين، رمادي داكن ورمادي فاتح.

يذهب إلى العمل راكبًا حمارته العجفاء، مع أن مكتب البريد يقع على بعد خطواتٍ قليلة من بيتنا.. يقول الوالد إن وصول المرء إلى مقر عمله راكبًا وسيلته الخاصة، يعطيه قيمةً واحترامًا وسط الناس.. يربط الوالد حمارته بجوار المكتب، ويدخل لاستلام البريد الذي سيتم توزيعه.. يضع البريد في حقيبته الجلدية الرمادية اللون.. يشرب كوب شاي ويتوكل على الله.

جرت العادة، على أن يخرج الوالد من المكتب، ليجد حمار العمل واقفًا في الانتظار.. يحيّيه مربتًا على عنقه، ثم يسير بحذائه عدة أمتار، قبل أن يمتطيه.. عندما يصل الحمار إلى ناصية الشارع، يلتفت إلى الحمارة المربوطة في سور مكتب البريد، ويحيّيها بنهيقٍ خفيف.

***

أعرف هذه التفاصيل؛ لأن الوالد كان يصطحبني معه في بعض الأحيان.. يمر على هذا فيسلمه خطابًا.. يمر على تلك فيسلمها طردًا.. يتسلم خطابًا يريد أحدهم أن يرسله بالبريد السريع.. يسلم خطابًا يتطلب استلامه الإفادة بالاستلام، سواء

كان ذلك إمضاءً، أو باستخدام بصمة الإصبع أو الختم الخاص.. خطابات مرسلة من الأبناء، من الآباء، من الأجداد، من الأزواج، من الزوجات، من الأصدقاء، من الأعداء، من الحكومة، من.. من.. من...

أثناء التجوال، يعرض عليه البعض كوب شاي، لا مانع.. زجاجة مياهٍ باردة، لا بأس.. زجاجة مياهٍ غازية، يا مرحبًا يا مرحبًا.. فطيرة بالينسون، فطيرة بالسكر، فطيرة بالعسل، شطيرة فلافل، فول، جبن، طماطم، خيار، فلفل.. وفي مرة وحيدة، لم تتكرر عبر سنوات خدمته التي تعدت الثلاثين، قطعة لحم في رغيف خبز بلدي.

حاول الوالد معي ولكني، بصراحة تامة، لم أجد نفسي في موضوع البريد هذا.. كانت آمالي أكبر من ذلك بكثير.. ثم إن علاقتي بالحمير كانت علاقةً معقدة، وتحمل الكثير من الذكريات الصادمة.. من ناحيته لم يعرض الوالد عليّ إمكانية توزيع البريد، بواسطة الدراجة الهوائية.. الحمير وإلا فلا.

لفترةٍ بعد ذلك، أمتنع عن الخروج مع الوالد وحماريه في جولتهم اليومية.. أظل بالبيت، أتأمل وأفكر وأضع الخطط المستقبلية.. تنتهز أمي الفرصة وتطلب مني مساعدتها في حشو المحشي، وإعداد الملوخية وإطعام البط والحمام.. أتعلل، في البداية، بعدم معرفتي لأيٍّ مما سبق، وبأنه لا يليق بي أن أفعل ذلك.. تعلنها أمي صراحةً، إما المساعدة، وإما أن يكون غذائي طوال اليوم، خبزًا وقطعة جبن.. وقد، وتضغط على (قد) هذه، قد تكون هناك خيارة صغيرة.. وأتعلم وأتعلم وأتعلم.

***

وفي مغرب يوم جمعة، أقف أمام الأسرة كلها والحمارة العجفاء.. أقف ممسكًا بكيس بلاستيكي به كل ما أملك، وأعلنها صراحةً.. سأتوجه إلى المدينة الكبيرة.

لا يعارض أبي في شيء، بل أحسّ أنه يودعني بشيءٍ من الفخر.. فهو عبر سنوات عمره كلها، لم يغادر قريتنا أبدًا، والآن سيذهب ابنه إلى الأماكن التي يرى أسماءها على الخطابات والطرود.. (السيدة زينب)، (القللي)، (بولاق)، (حلوان)، حي الأربعين بـ (السويس)، شارع الجمهورية بـ (أسيوط) بجوار محطة الوقود، ساحة المحطة بـ

(أسوان)، أمام (السيد البدوي) بـ (طنطا)، رابع مبنى الطابق الثاني شقة 9، سطح المنزل رقم 13 رابع غرفة على اليمين، الدور تحت الأرضي للمبنى رقم 122 بجوار الكلب الأسود...

أمي، من ناحيتها، لم تكن سعيدة.. ففي الفترة السابقة كانت قد وجدت فيّ مساعدًا لها في شئون البيت.. لم يكن يهمها كثيرًا تهكم الجارات علينا، وكانت تُرجع ذلك إلى الغيرة العمياء والحقد الأسود.

تعد لي كيسًا كبيرًا، تملؤه بالفطائر غير المحشوة بأي شيء، وببعض بقايا طعام الأسبوع الفائت.. أُقبّل الأيادي.. أودع الجميع وأنطلق في قطار الفجر.

***

ينطلق القطار، وتمر الساعات، ويتوقف القطار، وأنزل وأصاب بالذهول.. هذه هي إذن المدينة الكبيرة التي يتحدثون عنها.. مبانٍ ضخمة، شوارع عريضة، وأناس.. الكثير الكثير من الناس.

أسير في الشارع وأنا في ذهولٍ وحيرة.. يصيبني الدوار.. أجلس لأستريح قليلًا.. يعرض عليّ أحدهم زجاجة ماء.. أتناولها وأشكره.. أهمّ بفتحها.. يطلب ثمنها.. أعتقد أنه يمزح فأضحك مجاملًا.. يؤكد أنه لا يمزح.. أتعجب.. أردها إليه.. أحمد الله أني لم أفتحها.

***

بعد مرور ساعتين، وبعد سؤال عدد من المارة وأحد رجال الشرطة واثنين من رجال الإطفاء وعامل نظافة، أفطن إلى أن هذه ليست (القاهرة)، وأن (القاهرة) ما تزال على بعد أكثر من سبع ساعات بالقطار، وأن هذه ما هي إلا قرية كبيرة نسبيًا من قرى أحد مراكز الصعيد.

أتناول إحدى فطائر أمي، وأتجه ثانيةً صوب محطة القطار.. يعرض عليّ أحدهم زجاجة ماء.. أدفع قبل أن أمد يدي إليها.

المسئول عن التذاكر، حامل الحقائب، عامل النظافة، سائق القطار، مسئول الرصيف، مدير المحطة.. كلهم يؤكدون لي أن هذه هي المحطة النهائية، وأننا قد وصلنا فعلًا إلى (القاهرة).. عندها فقط، أترك مقعدي وأنزل من القطار.

أخرج مع الخارجين إلى الميدان الكبير.. تبهرني الأضواء الساطعة: مطعم الأمانة.. شطائر الاستقامة.. عصير الشهد.. حلواني القاهرة.. يلفت نظري الأخير.. أدقق النظر في كل لافتات المحال القريبة والبعيدة؛ لأزداد تأكدًا.. أعثر على ثلاث لافتات أخرى مشابهة: مخبز القاهرة الجديد.. كشك القاهرة العامرة.. والشركة العامة للأشياء المتنوعة، وتحتها بخط صغير وبين قوسين (فرع القاهرة).. هي (القاهرة) إذن.. أتنفس الصُعَداء.. لقد وصلت.

***

ألف وأدور في الشوارع لعدة ساعات في أول الأمر.. تتحول الساعات، مع الوقت، إلى أيام وليال ثم إلى أسابيع وشهور.. كل هذا ولا شيء يحدث.. لا يحس بي أحد، ولا يسأل عني إنسان.. يصل الأمر بي أنني صرت أفتقد الرجل الذي عرض علي زجاجة الماء في أول الرحلة.

***

- هل تبحث عن عمل يا ابني؟

- أنا؟ أتحدثني أنا؟

- ومن غيرك؟

- حسنًا.. نعم.. نعم.

- هل لديك شهادات؟

- معي شهادة الميلاد، ثم إنني أعرف القراءة والكتابة.

«وكل هؤلاء كذلك».. يقول ذلك وهو يشير بيديه إلى الناس من حولنا، ثم يتابع: «يا ذاهب إلى (القاهرة)، مثلك هناك ملايين.. بل وأحسن منك!».

- مـ .. ماذا؟

- قل لي يا ابني! هل تجيد حرفة معينة؟

- حرفة؟ مثل ماذا؟

- حرفة.. أية حرفة.. نجار، سباك، كهربائي.

- لا، ولكن.. أبي يعمل في البريد.

- واضح أنك ستتعبني وستتعب نفسك معنا.

- أرجوك يا حاج!

- هل لديك بطاقة؟

- طبعًا.

- حسنًا.. لدي عمل لك لا بأس به.

- هكذا الكلام.

- ستقابل في هذا العمل الكثير من الناس، وسيكون معظم عملك في الخارج.

- خارج مصر؟ يا ليته يكون في الحجاز!

- في الخارج أي بعيدًا عن الغرف المغلقة.. في الأماكن المفتوحة.. في الشوارع والميادين.

- حسنًا.

- والعمل يأتي ومعه ثلاث وجبات ومكان للنوم.

- يا فرج الله!

- موافق؟

- موافق طبعًا.

- حسنًا.. قلت إنك تعرف الكتابة، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنًا.. ضع توقيعك هنا.

- وما هذا؟

- هذا عقدٌ بيني وبينك ينص على إعطائك لي عشرة بالمائة من دخلك لمدة خمس سنوات هي مدة العقد.. وكما هو مكتوبٌ هنا يمكن التمديد بموافقة الطرفين وحتى عشرين سنة.

- عشرة بالمائة فقط.. أحس والله أنك تتهاون في حقك.

- ولا يهمك.. الناس لبعضها.

- حسنًا.

- سأتحصل على نسبتي، من رب العمل الخاص بك، أول كل شهر خصمًا من المنبع.

- حسنًا.

- وهناك شرط جزائي قيمته عشرة آلاف جنيه لو تركت المكان.

- حسنًا.

- على بركة الله.. وقّع هنا وهنا وهنا وعلى إيصال الأمانة هنا.

- حسنًا.

***

ولشهور عديدة أمضي يومي متنقلًا بين المحل وبيوت العملاء.. أوصل طلب هذا وذاك.. أرز، مكرونة، سكر، زيت، جبن أبيض، جبن رومي، جبن شيدر، مربى، حلاوة، شيكولاتة، رقائق بطاطس، مقرمشات ذرة، حلوى.. وفي نهاية اليوم أنظف المحل وأنام على الأرض في أحد أركانه.

أقوم بمرور الوقت بتطوير خدماتي، وأصبح مطلوبًا بالاسم في المنطقة كلها.. يحدث ذلك لأن هناك دائمًا خدمة إضافية أحرص على تقديمها للعملاء بجانب الخدمة الأصلية.. أمثلة:

- صباح الخير.

- صباح.

- الطلبات.

- ضعها عندك.. حسابك؟

- قبل الحساب، اسمح لي أن أقول لسيادتك نكتة؛ إذ من الواضح أن مزاجك اليوم ليس على ما يرام.

- نعم؟

- قهوجي خلَّف بنتًا، أسماها (شاي ماء).

- نعم؟ ما هذا؟

- شاهد بائع الخضار فيلم رعب فمات من (الخوخ).

- ما...؟!

- ذهبت السمكة لتنام، فقالوا لها (تسبحين) على خير.

ولا يضحك الرجل ولا حتى يبتسم.. يسبني ويتهمني بقلة الأدب، بل ويهم بضربي.. أجري عائدًا إلى المحل بعد أن حققت هدفي.. فالرجل وجد فيّ فرصةً لتنفيس الغضب المكبوت، وبدلًا من الانفجار في وجه زوجته أو أحد أبنائه، انفجر فيّ.

يمر عليّ الرجل بعد ذلك في المحل، ويترك لي مبلغًا من المال على سبيل الاعتذار.. صار الرجل بعد ذلك، وكلما أحس بالغضب أو بالقهر، طلب أشياء، قد لا يحتاجها من المحل، لأقوم بتوصيلها له فينفجر فيّ وينفِّس عن مكبوتاته.

مثال آخر:

- هل أنت عامل التوصيل؟

- نعم.

- حسنًا.. تسلَّم هؤلاء! لا يستغرق الذهاب إلى المدرسة أكثر من ست عشرة دقيقة.. لا تتوقف في الطريق للحديث مع هذا أو ذاك! لا تعلق على مظهر أو ملابس أو درجة جمال أية فتاة أو سيدة تمر في الطريق! لا أحاديث في السياسة، أو في أيٍّ من المحظورات العامة، مع أي واحدٍ من الأولاد الثلاثة! مفهوم؟

- نعم.. ولكن...

- لم أنهِ كلامي بعد.. بعد وصول الأولاد إلى باب المدرسة، تجعل عم (بسطاوي)، بواب المدرسة، يوقع لك على إيصال باستلام الأولاد.. سيحاول الإفلات من ذلك، والادعاء أنه لا يعرف القراءة والكتابة.. قل له إذا لم يوقع بالإمضاء فيمكنه غمس إصبعه في الحبر الأسود ووضعه على الإيصال.

- نعم.. ولكن...

- هل لديك هاتف بكاميرا؟

- ولا من غير كاميرا والله.. إنما أستعمل الهاتف الأرضي بالمحل.

- المفروض أن تقوم بتصوير عم (بسطاوي) كل يوم، وهو يستلم منك الأولاد الثلاثة، كلٌّ على حدة، ثم وهم يدخلون المدرسة.. على العموم، لا بأس، سأحاول أن أجد لك هاتفًا بكاميرا في الغد.

- هاتف بكاميرا؟ حسنًا.. هل الأولاد جاهزون؟ لا نريد أن نتأخر من أول يوم.

و:

- أدخل الطلبات إلى المطبخ.

- حسنًا.. يا ساترا!

- ضعها هناك على الطاولة، بجوار الكوسة.

- عفوًا، ولكني قد لاحظت أنكِ طلبتِ خلطة البشاميل، من بين ما طلبت اليوم.

- نعم.. وماذا في ذلك؟

- هل أفهم من ذلك، أن سيادتك ستقومين بإعداد كوسة بالبشاميل للأسرة الكريمة اليوم؟

- نعم.. وهي أول مرة لي.. ولكن مالك أنت بذلك؟

- عفوًا، ولكن لدي ملحوظة بسيطة، تمثل سر الكوسة بالبشاميل السليمة.

- نعم؟

- هو سر أسرَّت إليَّ به أمي.. وهي بالمناسبة، أحسن من يعد الكوسة بالبشاميل في الصعيد كله.. ويقال إنها الوحيدة التي تفعل ذلك.

- وما هو هذا السر؟

أنظر حولي متفحصًا المكان، ثم أهمس لها بصوتٍ منخفضٍ للغاية: «بعد سلق الكوسة، دعيها ساعةً في المصفاة حتى تفقد كل ما بها من ماء! إذا لم تفعلي ذلك، فستفقد قوامها بعد إضافة البشاميل وتصير رخوة».

- حسنًا.. سأجرب.

وتبعث لي بعد، مع ابنها الصغير، عشرة جنيهات وعلبة صغيرة بها قطعة من الكوسة بالبشاميل المعدة بإتقان.

***

وأيضًا:

- أصبت في ظهري ليلة أمس وأنا مع... أعني وأنا أرفع بعض الأثقال.. هل يمكنك أن...؟ أحس بالخجل والله...

- ماذا؟ ماذا تريد بالضبط يا أستاذ؟

- هل...؟ أعني أنك شاب ولن تمانع...

- نعم؟

- هل يمكنك...؟

- يمكنني ماذا؟

- هل يمكنك ربط حذائي اليوم وكل يوم حتى أشفى من الإصابة؟ سأعد لك جدولًا بمواعيد ذهابي إلى العمل وعودتي منه.

***

و:

- سيأتي فني المعمل لأخذ عينة بول مني بعد قليل.. لا أريد لزوجتي أن تعلم أني مصابٌ بمرض السكري.. هل يمكنك التبول في هذه الزجاجة نيابةً عني؟

و:

- الولد لديه امتحان حساب بالغد، وأنا عليّ الذهاب للعمل.. هل يمكنك مراجعة الدروس معه؟ هي ساعة ويعود والده من عند زوجته الثانية ويستلم منك المهمة.

***

- عقد ربطة العنق.

- ضبط القنوات الفضائية.

- تغيير الحفاضات.

- البقاء مع القط في المنزل حتى يعود الحاج من صرف المعاش.

- تعليم مجموعة من الأطفال ألعاب السلم والثعبان والليدو وبنك الحظ.

- إعداد فراش الحاج بعد أن يعود من صرف المعاش.

- تغيير ورق الحائط.

- صرف المعاش للحاج.

***

واليوم:

- هل جئت بالمياه الغازية؟

- نعم يا أستاذ.

- كولا أم برتقال؟

- واحدة وواحدة.

- حسنًا.. شكرًا لك.

- العفو.

- هل.. هل...؟ أسمعُ أنك خدومٌ وكتومٌ إلى أقصى درجة.. هل يمكنك مساعدتي؟

- اؤمر سعادتك!

- أنا عريس جديد والعروسة...

- الحاجّة؟

- نعم.. نعم.

- ألف مبارك.

- الله يبارك لك.. الحاجة.. الحاجة...

- خيرًا.. هل هي متعَبة؟

- هي متعِبة بكسر العين.. طلباتها كثيرة.. أكثر من اللازم.. أعني...

- لا تقل أكثر من ذلك.. لقد فهمت.

- حسنًا.. هل يمكنك...؟ بما أنك تساعد الناس وهكذا...

- ماذا؟

- أعني.. لو يمكنك...

- ماذا؟ ما الذي تطلبه بالضبط يا أستاذ؟ وأسرع بالله عليك.. لقد تأخرت على طلبات أخرى للطابق الرابع.

- واحدة واحدة.. الكلام أخذ وعطاء.

- نعم، ولكنهم في الرابع في انتظاري ليبدءوا تنظيف الشقة.. والخادمة هناك لا ترحم ولا لسانها يرحم.

- حسنًا.. حسنًا.. أقول.. هل يمكنك...؟

- ماذا؟

- هل يمكنك الذهاب إلى الصيدلية وإحضار بعض المقويات لي.. لا أريد أن يراني أحد وأنا أفعل ذلك.

- ولمَ الذهاب إلى الصيدلية؟ معي هنا في جيبي حبتان لهما مفعول السحر.

- حبتان؟ حسنًا، ولو أني أعتقد أنني في حاجةٍ إلى علبتين كاملتين لا إلى مجرد حبتين.

***

الخادمة

للمرة الرابعة، أتجه ناحية النافذة.. أفتحها.. أطل منها.. أنظر إلى الأسفل ناحية اليمين.. أنظر ناحية اليسار.. أنقر على خشب إطار النافذة في نفاد صبر.

أميل قليلًا إلى الأمام، وأحاول رؤية مدخل البيت.. لا أرى شيئًا.. أغلق النافذة وأتجه إلى النافذة الأخرى.. هي بالقرب من تلك الأولى، ولكنها تريني زاويةً أخرى.. أفتحها.. أطل منها.. أنظر إلى الأسفل.. يمينًا.. يسارًا.. بعيدًا.. إلى الأعلى.. لا أرى سوى الفَرِح بشبابه، وهو يقوم ببعض التمارين الرياضية في شرفة شقته.. أغلق النافذة.

بمطبخنا شرفة صغيرة، تتسع بالكاد للوقوف أثناء نشر الغسيل.. أفتحها.. خطوةً واحدةً وأكون بمحاذاة السور.. أنحني عليه قدر ما أستطيع وأنا أنظر يمنة ويسرة.. النتيجة واحدة.. أضرب الأرض بقدمي.. أدخل وأغلق باب الشرفة.

صابون سائل لغسل الأرض، صابون سائل لغسل الصحون، صابون خاص لغسل السجاد، صابون لغسل اليدين، صابون برائحة الليمون، صابون بدون رائحة، صابون لبشرة الحاجة الحساسة، منظف البقع، منظف البقع الصعبة، منظف البقع شديدة الصعوبة، منظف الأواني شديدة الاتساخ، ملمع الأثاث الخشبي، ملمع الأسطح المعدنية، ملمع الرخام، كلور.. هذه هي المواد التي من دونها لا أستطيع العمل.. تقول الحاجة: «استخدمي ما هو موجود! أضيع نقودي كلها على مواد التنظيف».. أعرف أنها تقول ذلك دون أن تعنيه؛ فالنظافة من الإيمان، وأنا لم أرها تفوت صلاةً واحدة، منذ التحقت بالعمل عندها من سبع سنين.

عندما يصل عامل التوصيل، سأفتح له الباب بوجهٍ مكفهر.. سأؤنبه على التأخير.. سأتركه واقفًا على الباب عدة دقائق إضافية، قبل أن أنقده النقود.. لن أعطيه أية مبالغ إضافية أو إكرامية.. وطبعًا لن أبتسم، بل وسأغلق الباب دون أن أقول له شكرًا.. بعد ذلك سأقول بصوتٍ عالٍ: «أعتقد يا حاجة، أن علينا التعامل مع محلٍّ آخر، بدلًا من هذا الذي يتأخر دائمًا».

***

ولا أفعل أيًا مما سبق.. فالحاجة هي التي تفتح له الباب أثناء وجودي في الشرفة.. تناديني.. أتناول أكياس الطلبات.. أتأكد أنه جاء بكل شيء.. للأسف أجده قد جاء بكل ما طلبت.. أشير للحاجة بذلك وأنا أتميّز غيظًا.. تدفع له ثمن الطلبات.. تعطيه إكرامية وتشكره.. أعض على شفتي.

أضع الزجاجات والعُلب كلٌّ في مكانه.. أستبقي ما سأستعمله بعد قليل.. تطلب الحاجة كوبَ شايٍ.. أعدُّه.. تطلب شطيرة جبنٍ صغيرة.. أُعدُّها.. تطلب شريحتي طماطم.. أحضرهما.. تطلب زيتونةً لا سوداء ولا خضراء.. أجدها.. تطلب قطعة بسكويت واحدة، وعليها حبة فول سوداني واحدة، وثلاث حبات حمص مع رشة قرفة.. أجيء بها.. منديلًا ورقيًا.. رشفة ماء.. قناة المسلسلات العربية.. جوربًا أيمن.. منديلًا ورقيًا آخر.. جوربًا أيسر.. تطلب.. تطلب.. تطلب.. وأطلب منها أن تسمح لي أن أبدأ في تنظيف البيت.. تسمح لي على مضض.

لكل شخص، حسنًا سأقولها، لكل خادمة جزءٌ مفضلٌ في أعمال البيت.. بالنسبة لي هو التنظيف.. أعني أنني أجيد الطبخ وأجيد غسل الملابس وأجيد الكي وأجيد تلبية الطلبات، ولكن الشغف الحقيقي يظهر وأنا أنظف.

الماء وهو ينسكب على الأرض.. الصابون ورائحته العطرية.. رائحة المنظفات والمطهرات.. اختفاء الأتربة من الزوايا.. تعرض أماكن مهملة لأشعة الشمس.. نصوع الألوان.. وضوح المعالم.. كل هذا يسبب لي إحساسًا بالرضا والارتياح.

أملأ الدلو بالماء.. أضيف الصابون والكلور بنسبة معينة.. لم يكن الأمر سهلًا في البداية، ولكن بفضل الله وبعد تجارب عديدة، نجحت في التوصل إلى النسبة المثالية للصابون في الماء.. فالنسبة لو كانت قليلة فكأنك يا أبو زيد ما غزيت، ولو كانت كثيرة فهذا إهدارٌ لا داعي له.. أضيف بعد ذلك الكلور، وأترك الدلو بما فيه من مكونات؛ لتمتزج بصورةٍ جيدة.

***

أبدأ، في العادة، بغرفة الجلوس.. تلك التي بها النافذة المطلة على الشارع

الرئيسي.. ألف السجادة ثم أحملها إلى الشرفة.. أعود إلى الغرفة.. أمسك الرياشة بيد وبقطعة قماش بالأخرى، وأبدأ بالنافذة فقطع الأثاث واحدةً وراء الأخرى.. الأريكة الكبيرة.. الأريكة الصغيرة.. المقعد الكائن إلى يمين النافذة.. الآخر الذي إلى اليسار.. الطاولة الكبيرة وأخيرًا الطاولتين الصغيرتين.

***

- نعم يا سيدتي.

- أنادي عليك ولا حياة لمن تنادي.

- أنظف غرفة الجلوس.

- دعيك منها! أريد تناول محشي على الغداء اليوم.

- ماذا؟

- محشي.. ألا تعرفين المحشي؟ فلفل، باذنجان أسود، باذنجان أبيض، كوسة، طماطم.. تقومين بإفراغ الجزء الداخلي منها، وتحشينه بالأرز والطماطم المقطعة، والمقدونس والكزبرة والشبت، مع الملح والفلفل.. لهذا أسموه محشي.

- أعرف يا سيدتي بالطبع، ولكن أعني أن اليوم هو يوم التنظيف، ويكون هناك دائمًا تفرغ كامل لذلك.

- محشي.

- و...؟

- محشي.

- ولكن...

- محشي.

- ليس لدينا أيّ من مكوناته اليوم.

- لهذا وُجدت بائعة الخضر على مدخل الشارع.. هيا!

- و...؟

- محشي.

أجفف يدي.. أرتدي ملابس الخروج.. أضع الخف البلاستيكي في قدمي وأنزل إلى أول الشارع.

***

- كان على عيني يا حبيبتي.. لم يتبق سوى ثمرتي كوسة وفلفلة واحدة وبصراحة لا أرضى لك بأيٍّ من الثلاثة.

- وما الذي...؟

- لا أعلم والله.. شيء غريب.. الشارع كله اليوم يقوم بعمل المحشي.. ثم أليس هذا هو يوم التنظيف لديك؟ لقد شاهدت عامل التوصيل، يصعد إليكم بزجاجات وأدوات التنظيف.. محشي وتنظيف في يوم واحد؟ هذا لا يصح.. لا يصح أبدًا.

- حكم القوي على الضعيف.

- لدي فكرة.. الست (أم حنفي)، أخذت كميةً كبيرةً من الخضر.. مري عليها لعلها تعطيك بعضًا منها وتحل المسألة!

- حسنًا.. سأجرب.. شكرًا لك.

***

وأصعد إلى شقة (أم حنفي).. يقولون إنها، حسب علمهم، في شقة الطابق الأرضي.. أنزل وأدق الباب.

أسمع وقع أقدام، ثم أحس بمن ينظر من العين السحرية المركبة في الباب.. عدة أقفال تبدأ في التحرك.. أتوقف عن العد بعد الرابع.

- صباح الخير.

- صباح النور يا عيوني.

- قالوا لي في الرابع إن (أم حنفي) هنا.

- نعم يا حبيبتي.. هي محبوسة في غرفة الفئران.. أية خدمة؟

- حسنًا.. لا أريد أن أزعجها أو أعكر صفوها، ولكن كنت آمل لو في إمكانها إعطائي بعض الفلفل والباذنجان والكوسة؛ لأعد محشي للحاجة.

يأتيني صوت (أم حنفي) من الداخل: «كان على عيني يا حبيبتي.. لقد أعددت كل الكمية التي أخذتها من (أم عبده)».

- حسنًا.. شكرًا لك.

تلتفت إلى صاحبة البيت وتقول: «ما رأيك لو أخذت بعض المحشي الجاهز من على البوتوجاز.. الكمية كبيرة وتكفي من الأحبة مائة؟».

- حقيقة؟

- بالطبع.

- حسنًا.. شكرًا لك.. هذا كرمٌ منك.

- هل تريدين الدفع نقدًا أم أقسطه لك؟

- نعم؟

- بصراحة، في حالة المحشي فإن أقصى مدة للتقسيط هي ثلاثة أشهر.

ولا أدفع لها نقودًا ولكن أتفق معها على أن أقوم بتنظيف غرفتين وشرفة يوم الجمعة القادم مقابل المحشي.

أخرج حاملةً المحشي الموعود.. ألمح السيدة تطل من نافذتها ذات القضبان.. في البداية، أعتقد أنها تلوح لي مودعةً.. ألوح لها بدوري.. أنتبه إلى أنها لا تنظر ناحيتي

على الإطلاق.. أنظر إلى حيث تنظر.. الشاب مفتول العضلات إياه، يقوم بأداء بعض التمارين الاستعراضية في الشرفة.. لا أضيع المزيد من الوقت.. أسرع الخطى ناحية البيت.

***

- وأعددته سريعًا هكذا؟

- نـ .. نعم.. يا حاجة.

- حسنًا.. ضعيه في الثلاجة الآن! سأتناوله غدًا أو بعد غد.

- ماذا؟

- والآن إلى الصالة.. فالبيت لن ينظف نفسه.

***

أستخدم المكنسة أولًا؛ ثم أبدأ المسح بالماء والصابون والكلور.. أبدأ من الحائط البعيد ومن اليمين إلى اليسار حتى أصل إلى المدخل.. أعيد الكرّة.. أنتبه، أثناء التنظيف، إلى أن فتحة مقبس الكهرباء وما يحيط بها متسخة اتساخًا شديدًا.. أتناول قطعة القماش المبللة وأبدأ في تنظيفها بكل عناية.. من الخارج ومن الداخل.

- الكهرباء مقطوعة من ساعة وأنت نائمة على الأرض هكذا؟

أفتح عينيّ بصعوبة.. أحس بألمٍ في رأسي وفي يدي وقدمي.. ألاحظ أن هناك حرقًا في إصبعي اليمنى، وآخر في قدمي اليسرى.

«التليفزيون، هو الآخر، لا يعمل.. سمعت صوت انفجارٍ خفيف ورأيت وميضًا سريعًا ثم لا شيء.. انتظرتك لتمري وتطمئني عليّ ولكنك لم تفعلي.. صحيح النوم سلطان».

أقول وأنا أعتدل مكاني محاولةً القيام: «وهل أنت بخير الآن يا حاجة؟».

- الحمد لله على كل حال.. والآن، بعد أن نمت بما فيه الكفاية، أعدي لي كوبَ شاي بالحليب، ثم أكملي تنظيف البيت.. كفى كسلًا!

***

أعد الشاي على عجل.. أحس بصداعٍ شديد.. أربط رأسي بالمنديل.. أحكم الربطة.. أضع بعض المطهرات على جرحَي يدي وقدمي؛ ثم أقوم بتغيير ملابسي التي أصابها البلل.

- كم ملعقة ملح قد وضعت في الشاي يا بنت؟

- اثنتين.

- وهل يوضع الملح في الشاي؟ ما الذي أصابك؟

- أحس ببعض الصداع.. أنا متأكدة أنه سيختفي بمجرد اندماجي في التنظيف.. هل أعد لك شايًا غيره؟

- حسنًا.

- ولا تخافي! سأتذكر هذه المرة، أن أضع لك ثلاث ملاعق ملح لا اثنتين.

- سكرا! سكر يا بنت! الشاي سكر.. الطعام ملح.. سكر.. ملح.

***

أنهي تنظيف البيت كله.. أحس أنني قد صرت أحسن.. خف الصداع قليلًا، وظهري لم يعد يؤلمني بنفس الدرجة.. أفتح الباب الخارجي.. أحضر الدلو المليء بالماء والصابون، وأبدأ في مسح الجزء الكائن أمام باب الشقة وحتى الدرَج.

***

- ثانية واحدة.. دعينا نمر قبل أن تكملي إغراق الأرض بالمياه.

أنظر إلى مصدر الصوت.. الولد التلميذ الذي في الطابق العلوي وزميل له.. يحملان كتبهما في الطريق إلى الدرس.. خلفهما مباشرةً البنت الصغيرة ومعها أرنبها المحشو.

تنظر إليّ الصغيرة وتبتسم.. أبتسم لها بدوري.. هي بنت لطيفة، أراها كثيرًا هنا

وهناك.

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

- و(أرنوب)؟

- بخير.. كان يعاني من بعض المغص بالأمس، ولكنه اليوم أحسن.

- الحمد لله.. احترسي من المياه!

- حسنًا.. باي.

تقول ذلك وهي تلوح بيدها.. أرد عليها: «(باي) تساوي 3.1415».. تلتفت ناحيتي ولا تقول شيئًا.. يتوقف الولدان.. ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر ثم ينفجران ضاحكين.

***

أكمل تنظيف الردهة والجزء المواجه للدرَج وأعود إلى الشقة.. أغلق الباب ورائي.. أدخل في نفس اللحظة التي تنهي فيها الحاجة مكالمتها مع ابنتها المقيمة في الخارج: «تحياتي لزوجك وقبلاتي للولد والبنت.. باي.. باي».

أنظر إليها بآلية وأقول: «باي تساوي 3.141592».

- ماذا؟

- «(باي) تساوي 3.141592».

- ما هذا الذي تقولينه يا بنت؟

- لا أعرف.. كل ما أعرفه هو أن «(باي) تساوي 3.141592».

- وما كل هذا الرقم؟

- هناك أكثر فـ «(باي) تساوي 3.14159265359».

- يا إلهي! ما الذي جرى لك يا بنت؟ ويقولون أنا المخرفة! اسمعي يا بنت، هل هذا له صلة بالصداع الذي تشتكين منه؟

- لا أعرف يا سيدتي.. كل ما أعرفه هو أن «(باي) تساوي 3.14159265359».

- وهل تعرفين ما هي (باي)؟

- لا.. هل تعرفين أنت؟

- (باي) هي النسبة بين محيط الدائرة وقطرها، وهي «تساوي 22 على 7».. هل نسيت أنني كنت مدرسة رياضيات قبل أن أتقاعد؟

- ولكن ما الذي...؟

- قولي الحقيقة يا (زوزا)! هل هذا ملعوب دفعك أحدهم لعمله فيّ؟ قولي الحقيقة ولن ألومك أو أعاقبك!

- ماذا؟ أقسم.. أن.. لم...

- حسنًا.. حسنًا.. سنرى.. اذهبي الآن فتناولي بعض الطعام واستريحي قليلًا.

- حسنًا.

أسير ناحية المطبخ.. أسمعها تقول بصورةٍ مباغتة: «باي!».. أرد دون تردد: «3.14159265359».

أتناول الطعام وأشرب كوب شاي.. بمجرد خروجي من المطبخ، أجدها تصرخ فيّ: «باي!».

- «3.14159265359».

- الغريب أن من يعرف (باي) ويحفظ قيمتها، يكتفي بثلاثة أو أربعة أرقام، أما أنت فترصين الأرقام دون توقف.. ولقد راجعت أرقامك.. كلها سليمة!

- حقًّا؟ أرقامي سليمة؟ إذن لا يوجد ضغط أو سكر؟

- ماذا؟ ما هذا الذي...؟ (باي)!

- «3.14159265359».

- أعتقد أن عليك النوم قليلًا.

- ولكن ليس من عادتي النوم في مثل هذا الوقت.

- اليوم استثناء.

- ولكن...

- دون (لكن).. هيا! ودعيني أفكر قليلًا.. أعتقد.. أن.. الأمر يحتاج إلى بعض التفكير.

- حسنًا.

***

وأفتح عيني وأفاجأ بالحاجة جالسة بجوار السرير. تتنفس الصعداء ثم تصفق بيدها وهي تقول: «الحمد لله».

أحس بصداعٍ شديد، وألاحظ جرحًا جديدًا في يدي وآخر في قدمي.. أحاول الاعتدال.. تسندني الحاجة.

- حمدًا لله على السلامة.

- الله يسلمك.. هل نحن في الصباح أم في المساء؟ أأعد طعام الإفطار أم العشاء؟

- لا هذا ولا ذاك.. استريحي الآن!

- ولكن...

- والآن.. باي!

- باي.

- أقول باي.

- حسنًا.. هل ستخرجين الآن؟ أتودين أن أعد لك ملابس الخروج؟

- باي.. باي.

- مع ألف سلامة.

- الحمد لله.. لقد عدت إلى طبيعتك.. خشيت أن يكون موضوعِ (باي) هذا بدايةً لتغييراتٍ كثيرة في تصرفاتك وشخصيتك وينتهي بي الأمر إلى البقاء وحدي.

- عفوًا يا حاجة، ولكني لا أفهم شيئًا.

- وهو المطلوب.. هكذا أفضل، أليس كذلك؟

- ما دمت تقولين ذلك.

- الحمد لله.

- الحمد لله.. الحمد لله.. بالمناسبة يا حاجة، ما كل هذه الأسلاك الكهربائية المتصلة بسريري؟

- نعم؟

***

أتوقف، فجأةً، عن الضحك.. التفت إليه وأسأله: «ولكن كيف عرفت الخادمة كل تلك الأرقام؟».

- ماذا؟ أتعني أن تلك الأرقام صحيحة؟

- على الأقل أول ثلاثة.

ينظر إليّ مستهجنًا، ثم يقول: «وكيف عرفت أنت أن تلك الأرقام صحيحة؟ أتدرس من ورائي؟».

- لا.. أعني.. بالطبع لا.. قد تكون غير صحيحة.. أعني...

تنقذني الصغيرة فتشد قميصي وهي تقول: «هيا بنا!».. أنتهز الفرصة لأتهرب من سؤاله.. أنحني وأسألها: «حسنًا.. ماذا تريدين؟ وبسرعة لأن علينا إرجاعك إلى البيت واللحاق بالدرس».

- أنا لا أريد شيئًا لنفسي.. فأنا أعرف الظروف.

- ماذا؟ ما الذي...؟

- (أرنوب) هو الذي يريد.

- وماذا يريد السيد (أرنوب)؟

- جزرة طبعًا.

- حسنًا.. غالٍ والطلب رخيص.. هيا إلى (أم عبده).

خطوات ونكون أمام بائعة الخضار.. نشرح لها الموقف.. تعطي أرنوبًا جزرةً وترفض تقاضي ثمن لها.. أصر.. تصر.. أصر أكثر.. تقول: «هذه هدية بسيطة للصغيرة وأرنبها.. مالك أنت؟ كلمة أخرى وأجري وراءك الشارع كله».

يسحبني بعيدًا وهو يشكرها.. تلوح لها الصغيرة وهي تبتسم.. يلوح (أرنوب).

- إلى أين الآن؟

- إلى البيت طبعًا.. ألم يحصل (أرنوب) على الجزرة، وحصلت أنا على كلمتين لا داعي لهما؟

- يرفض (أرنوب) العودة إلى البيت الآن.

- ماذا؟ إنه أرنب محشو بالقطن.. ليس من حقه أو قدرته الرفض أو...

يمسكني من يدي.. ينحني ناحيتها وهو يبتسم ويقول: «وماذا يريد (أرنوب) إذن؟».

- يريد لي أن أحصل على قطعة شيكولاتة، ومغلف بسكويت بالفراولة، ومصاصة بالتوت، وكيس بطاطس مقرمشة بطعم الجبن.

- حسنًا.. سأحضر لك كل هذا، ثم نعود إلى البيت.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

أبدي اعتراضًا.. يقول: «لا عليك.. سأدفع أنا.. هي مثل أختي.. أعرف الظروف.. ثم إن علينا أن نلحق بموعد الدرس أم نسيت؟».

- بالطبع لا.

- حسنًا.

يشتري لها كل ما طلبت.. تفحص الطلبات هي و(أرنوب).. تتمهل أمام كيس البطاطس، ثم تعيده قائلةً: «هذه بطاطس مقرمشة بطعم الجبن المتبل.. أنا طلبت بطاطس بطعم الجبن العادي».

- أليسا مثل بعض؟

يظهر على وجهها المفاجأة من تلك الجملة.. تنظر إلى أرنبها غير مصدقة، ثم تنفجر هي والأرنب ضاحكين: «بالطبع لا!»

***

نعود إلى البيت.. أستأذن دقيقة لأوصلها للشقة.. نمر على الخادمة وقد قاربت الانتهاء من تنظيف الردهة المقابلة للشقة التي تعمل بها.. تضع الصغيرة المصاصة في فمها، وتشير لها بالشيكولاتة والبسكويت وبطاطس الجبن.. تحييها الخادمة بدورها وهي تقول: «هنيئًا مريئًا».

- باي باي يا (زوزا).

- (باي)؟ «(باي) تساوي 3.14159265359».

***

نسير بسرعة في طريقنا إلى مركز الدروس.

- ندخل من الباب ونخرج من الشرفة.. اتفقنا؟

- ماذا؟ لا! لا يمكنني أن أفعل ذلك اليوم.

- ولماذا إن شاء الله؟ ومن سيذهب معي إلى المقهى وإلى السينما إذن؟

- اليوم عليّ تدريس الصف الإعدادي.. تعرف النظام.

- حسنًا.. أنتظرك في المطبخ حتى تنتهي.

- ولماذا؟ أعني.. لماذا لا تحضر الدرس المفترض عليك حضوره؟

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- لا شيء.. لا شيء.

***

ينظر الرجل إلى صديقي.. يهز رأسه هزةً واحدة.. يسمح له بالدخول.. ينظر إلي.. ينظر مليًا.. يتردد لثوان.. يفكر قليلًا.. يشير إليه الأستاذ أن لا بأس.. يهز رأسه ويسمح لي بالدخول.. يمسكني الأستاذ من يدي ويقول: «فقط لأن طلبة الإعدادي يعجبون

بشرحك.. أعرف الظروف، ولكن حاول أن تدفع المرة القادمة، وإلا فلن تنفعك مجموعة الإعدادي».. أهز رأسي بدوري.

***

- ماذا قال لك؟

- لا شيء.. لا شيء.

- حسنًا.. سأجلس في المطبخ قليلًا ثم أتجه إلى الشرفة.. مر عليّ عندما تنتهي!

- ولكن.. أعني.. نحن هنا الآن فلماذا، بالله عليك، لا تحضر الدرس؟

- عدنا إلى الكلام السخيف.

- كما تحب.

***

بعد حضوري درس الرياضيات، أطل عليه في المطبخ.. يقولون لي إنه في الشرفة.

- أخيرًا! هيا بنا!

- مهلًا.. ليس بعد.. عليّ إعطاء درس اللغة العربية.

- حسنًا ولكن أسرع!

- ما يزال أمامي عشر دقائق قبل أن أبدأ.

- حسنًا.. هل سمعت آخر الأخبار؟

- أية أخبار؟

- يقولون إن هناك راقصة تسكن شارعنا.

- ماذا؟

يرشف رشفةً من فنجان القهوة ويخرج لفافة تبغ من جيب قميصه.

- أدخن نصفها وأعطيك الباقي.

- لا.. لا.. بالله عليك، لا تشعلها هنا!

- ولكننا في الشرفة.. وكل شيءٍ مباح في الشرفة.

- لا أعتقد ذلك.. دعها الآن! ندخنها، بعد قليل، في الطريق.. ما الذي كنت تقوله عن الراقصة؟

- يقولون إن أحدهم تعرّف عليها، عندما شاهد تسجيلًا لها وهي ترقص في ملهًى معروف.

- وأين هذا التسجيل؟ لن أصدق إلا عندما أراه بأم عيني.

- مسحه عم (وديع) بائع الفول.

- بائع الفول؟ وما علاقة...؟

يشير إليّ أحد الأولاد بحلول موعد الدرس.. أترك الشرفة على وعدٍ بالعودة بين درسي اللغة العربية والعلوم.

***

- وماذا أيضًا؟

- ماذا ماذا؟

- ماذا حدث في موضوع الراقصة؟

- نعم.. يقولون إنها تدّعي العمل كممرضة؛ لتبرر سهر الليالي والعودة قرب الفجر.

- مثل الأفلام العربية القديمة.

- بمناسبة الأفلام، إلى أي سينما سنذهب الآن؟

- ليس الآن.. درس العلوم لم يبدأ بعد.

- أحس أني أضيع عمري معك.

- سأحاول الانتهاء سريعًا.

***

أعود بعد فترة، أجده يتناول شطيرة، ويضع أمامه بعض البطاطس المقلية والمخلل.. يسأله المدير إذا كان يرغب في شيء آخر.. يهز رأسه نافيًا.

***

- دجاج بالثومية.. هل أطلب من المدير أن يعد لك واحدة؟

- لا شكرًا.

- حسنًا.. سأعطيك نصف شطيرتي هذه.. أمسك!

- لا.. لا.. شكرًا.

- وأمامك البطاطس.

- حـ .. حسنًا.

- ننهي طعامنا ونتجه إلى السينما.

- ودرس الرياضيات؟

- أي رياضيات؟

- لقد تغيب اليوم طالب الثانوي المسئول عن إعطاء درس الرياضيات لطلبة الإعدادي، فلم يجدوا غيري لإعطاء الدرس.

- يا إلهي! ألن ينتهي هذا اليوم؟ لقد شربت حتى الآن ثلاثة فناجين قهوة، وأربعة أكواب شاي، وزجاجتي مياه غازية.

- و...؟

- وأكلت منذ الصباح وحتى الآن، شطيرتي فول، وشطيرتي فلافل، وشطيرتي باذنجان، وبيتزا صغيرة، وفطيرة بالعسل.. هذا طبعًا قبل أن أطلب شطيرة الدجاج والبطاطس المقلية.

- ما الذي...؟

- ملل.. ملل.. كل هذا وأنا أنتظرك.. أليس عندك دم؟ ألا تحس بالخجل؟

- ولكن...

- لقد أمضيت النهار كله وأنا أدخل في لعبة وأخرج من أخرى حتى نفد شحن هاتفي.. كل هذا وأقول هانت.. كاد ينتهي.. كدنا نصل.

***

- آخر درس.. وهو ليس بدرس.. هو امتحان سريع؛ لأعرف المستوى الذي وصل إليه الأولاد.

- امتحان؟

- سريع والله، وبعده نذهب إلى حيث تشاء.. المقهى.. الملعب.. السينما.. يمكننا حتى الذهاب إلى الولد الذي معه تسجيل الراقصة.

- لا فائدة من هذه الأخيرة.. قلت لك إن عم (وديع) قد مسحه.

- ولو أني لا أفهم ما علاقة عم (وديع) بالموضوع، ولكن على العموم أنهي الامتحان ونخرج من هنا.

- من الشرفة؟

- من الشرفة، من الباب، من أي مكان.

- أفضل الشرفة.

- حسنًا.. كما تحب.

- أحس بالمغامرة وأنا أفعل ذلك.

- حسنًا.

- يُضَخ (الإنسولين) في جسدي عندما أقفز من فوق سور الشرفة.

- (الإنسولين)؟ تعني (الأدرينالين).

- ينتابني احساس متعاظم أنك تدرس من ورائي.

- لا.. أعني.. سأذهب لامتحان الأولاد وأعود بسرعة وساعتها نترك المكان.

- من الشرفة، أليس كذلك؟

- كما تحب.

- الشرفة.

- حسنًا.. حسنًا.

***

أعود، بعد فترة، ومعي أوراق الامتحان.. ينظر إليّ متسائلًا:

- أصحح الأوراق وننطلق.

- من فوق سور الشرفة.

- حاضر.

- حسنًا.. دعني أساعدك حتى ننتهي بسرعة.

- تساعدني في تصحيح الامتحان؟

- بالطبع لا.. أساعدك في الجلوس أم ستظل واقفًا هكذا؟

- وأين أجلس؟ لقد امتلأت الشرفة بالطلبة.

- سأتنمر على أحدهم وأدفعه للقيام.

- لا داعي.. كلها عشر أوراق إجابة.. أنهيها بسرعة.

لا يأبه لما أقول.. يتنمر على أحدهم ويدفعه للخروج من الشرفة غاضبًا و.. أجلس.

عشرون سؤالًا سريعًا.. إجاباتها لا تتطلب سوى الإجابة النهائية فقط أي دون كتابة الخطوات.. يعنّ لي أن أضع في وسطها سؤالًا عن قيمة باي.. الغريب أنه لم يعرف أي واحدٍ من الطلبة الإجابة الصحيحة.

***

- هيا بنا!

- هيا بنا!

- نذهب إلى السينما.

- حسنًا.. أي فيلم؟

- أي فيلم ما دام فيه ضرب ولكم وركل وراقصة ترقص، ويا حبذا لو تنين يبث نارًا، أو وحش برأس بني آدم وجسد ثور.

أنظر إلى الساعة.. لقد بدأت العروض منذ أكثر من الساعة، وموعد الحفلة القادمة لن يحين قبل ساعتين.

- ماذا؟ أي فيلم هذا؟

- أي فيلم.. فالحفلات معروفة المواعيد.

- وماذا نفعل إذن؟

- يمكننا الذهاب إلى الملعب ولعب بعض الكرة.

- ولكن ليس معنا كرة.

- يمكننا استئجار واحدة من المركز هنا.

ونفاجأ بأن جميع كرات القدم الموجودة في مركز الدروس، قد تم تأجيرها، ولم يتبق سوى بعض كرات التنس، وعدد من كرات الجولف وكرتي بولينج.

- ما العمل الآن؟

- المقهى؟

- لقد تناولت كل ما يمكن أن أتناوله في هذا اليوم.

- يمكننا الجلوس ولعب الطاولة أو الدومينو أو حتى الشطرنج.

***

- يمكننا لعب الطاولة أو الدومينو ولكن لا داعي للشطرنج.. هو دائمًا ما يسبب لي الصداع.

- حسنًا.

- هيا بنا إذن! مهلًا! مهلًا! وفي أي مقهى سيكون هذا الكلام؟

- أي مقهى.. المقهى الذي على الناصية مثلًا.

- هذا يجلس فيه أبي منذ أن توقف عن العمل.. ولو رآنا هناك ستكون ليلتنا ليلاء.

- حسنًا.. المقهى الجديد.

- يجلس هناك أخي الأكبر.

- مقهى أول الشارع.

- عمي.

- المقهى المجاور لمجمع المدارس.

- خالي مدرس في إحدى تلك المدارس، ومقره للاتفاق على الدروس الخصوصية هو ذلك المقهى.

- أوَتنتشر عائلتك في مقاهي مصر كلها؟

- فلنفكر في مكانٍ آخر غير المقهى.

- نتسكع في الشوارع حتى يحين موعد السينما.

- حسنًا.

- نسير في هذا الشارع إلى آخره، ثم نتجه يمينًا ونسير في الشارع الجديد حتى قرب الميدان، وبعدها...

- أتضع خطةً للمشي والتسكع؟ اسمه (تسكع)، أي أن تسير هكذا بدون هدفٍ محدد.

- ومن الذي يدرس من وراء الثاني الآن؟

- لا تضيع المزيد من الوقت.. كفى ما ضاع! هيا بنا!

- ألن نخرج منَ الباب؟

- بالطبع لا.. ولم عُملت الشرفة إذن؟

- للجلوس والتمتع بالجو خارج الغرف المغلقة.. لنشر الغسيل حتى يتعرض للهواء والشمس.. عُمِلت...

- يا إلهي! كفى كلامًا! وهيا بنا!

ويصعد فوق سور الشرفة، واضعًا قدمه على أول السلم الخشبي المستند إلى الحائط.. في نفس الوقت وبدون أن ينتبه أحد، يضع الولد الذي تنمر عليه منذ قليل، قدمه بينه وبين السلم.. ويختفي من أمامي.. وأسمع، ويسمع كل من بالمركز وبالأماكن المحيطة، صوت تكسر أشياء كثيرة.

***

الممرضة

- أنزل ملابسك!

- نعم؟

- أنزل ملابسك!

- لماذا؟

- أي لماذا؟ وكيف سأعطيك الدواء إذن؟

- لن أفعل.. ماما! أين ماما؟ ماما!

يأتي صوت الصغيرة الواقفة بجوار الباب من الخارج: «عمتي ذهبت لعمل الشاي.. تقول: إن من الواضح أن خالتي الممرضة، في حاجةٍ إليه بعد كل ذلك السهر ليلة أمس».

ألتفت إليها وأبتسم بصعوبة.. يتمسك الولد بملابسه وبالغطاء الذي يغطيه، ويغطي جبيرتَي ذراعه وقدمه.

- ماما! ماما! أريد ماما!

تقول البنت: «أغمض عينيك وسيكون كل شيءٍ على ما يرام! هكذا يقول (أرنوب) دائمًا.. وهو يقول كذلك إن الأمر مثل شكة الدبوس، وإن هذه الممرضة لا تكاد تحس بشكها لك.. على عكس عامل التوصيل الذي أعطى (أرنوب) دواء المغص آخر مرة».

- ما.. ماذا؟

- أقول: أغمض عينيك! أغمض عينيك!

***

وأجلس على المقعد في انتظار عودة أمه.. أغمض عيني قليلًا لأريحهما.. تظهر لي، على الفور، أحداث الليلة السابقة.. أستعيد، بالتفصيل، الحوار الذي دار بيني وبين

الطبيب الجراح في نهاية عملية استئصال المرارة.

- هل عددت المناشف التي أخرجناها من بطن المريضة؟

- نعم.

- هل أنت متأكدة تمامًا من العدد؟

- بالطبع.

- لماذا إذن عدد المناشف الخارجة أكثر بكثير من تلك التي وضعناها أصلًا؟

- نعم؟

- هكذا تقول الكتابة على اللوحة.

- ماذا؟ لعلها.. لعلها كانت موجودةً في بطن المريضة من قبل العملية؟

- نعم؟

- نعم.

- ما هذا الهراء؟

- أقسم أن...

- بدون قسم.. تمالكي نفسك، وتأكدي أنه سيكون هناك تحقيقٌ في الأمر.

***

- الشاي.

أفتح عيني.. أجدها تقف أمامي وفي يدها كوب شاي، وفي اليد الأخرى قطعة بسبوسة في صحنٍ صغير.

- شكرًا لك.

- العفو.. هل انتهيتما؟

- يرفض الدواء إلا في وجودك.

- حبيب أمه.. اشربي الشاي وتناولي البسبوسة، وبعدها سيكون تحت أمرك.

- حسنًا.. على العموم، فإن هذا الدواء المسكن هو لمصلحته.. سيخفف قليلًا من آلام كل تلك الكسور.. على الأقل حتى موعد الجرعة الثانية.

- الثانية؟

- نعم.. حسب ما هو مكتوبٌ في وصفة الطبيب.

- حسنًا.

- بالمناسبة، ما الذي حدث بالضبط؟

تنطلق أمه: «أطاحت به سيارة عند الإشارة.. أدعو على صاحبها بالخراب في كل صلاة.. هل تصدقين أنه هرب بعد أن صدم الولد دون أن يكلف خاطره الاطمئنان عليه؟».

تقول البنت الصغيرة في حيرة: «سيارة؟ أية سيارة؟ ألم يقم أحدهم بإلقائه من...؟».. يتدخل الواقف بجوارها ويقول: «أعتقد أن موعد نوم (أرنوب) قد حان.. هيا بنا!».

- ولكنهم يقولون سيارة، وهذا...

- هيا بنا!

أبتلع القطعة الأخيرة من البسبوسة وأنتصب واقفة.. أقول وأنا أضع بعض الكحول على قطعة القطن الصغيرة: «هيا بنا نحن أيضًا.. لقد أضعنا ما فيه الكفاية من الوقت».

تمسك أمه به.. تنزل ملابسه قليلًا.. يصرخ قبل أن أفعل أي شيء.. تنهره أمه.. يصرخ ثانيةً.. تنهرة ثانيةً.. أنهي الأمر قبل أن يفتح فمه لثالث مرة.

أتجه ناحية الباب الخارجي.. تطلب مني الأم الانتظار لثوان.. يدخل صديقه إلى

الغرفة.. أسمعه يقول له بصوتٍ منخفض: «يعجبني فيها إتقانها لدور الممرضة».. يرد الآخر: «ولكن لماذا لا تكون ممرضةً فعلًا؟».

- هل رأيت مشيتها وهي تتجه إلى الخارج؟ بالله عليك، هل هذه مشية ممرضة؟ إنها مشية راقصة ما في ذلك شك.. وليست أي راقصة بل راقصة متمكنة من أدواتها.

تناولني الأم مظروفًا به بعض النقود.. لا أفتحه.. أتمنع قليلًا والجيران لبعضها وهكذا.. تشكرني.. تربت على كتفي.. تفتح لي الباب وهي تدعو لي.. أسير خارجةً.. أسمع صوت أحدهما وهو يقول: «أرأيت المشية؟ ألم أقل لك؟».

***

أتفحص الرسائل على الهاتف.. ثلاثة يطلبون خدماتي.. الثلاثة في محيط الشارع.. أتوجه صوب موعدي الأول.. تناديني وأنا أعبر الشارع:

- يا ست الحكيمة! يا ست الحكيمة!

- خيرًا يا (أم عبده).

تقول وهي تمسح يديها في ملابسها: «هل.. هل تريدين خضارًا اليوم؟ (أبو عبده) جاء مع حماره منذ قليل، وترك لي الدفعة الثانية من خضار اليوم.. كوسة وفلفل وباذنجان وبطاطس وطماطم و...».

- شكرًا يا (أم عبده)، ولكني في طريقي إلى عملٍ الآن.

- وملوخية.. ملوخية ترد الروح.

- ليس الآن.. بعد إذنك.

- قُنَّبِيط.. زهرة ولا أحلى.

- إذا لم يكن هناك شيءٌ آخر.

- هناك ملفوف وخيار وجزر و...

- (أم عبده)! بعد إذنك.

- بصراحة، كنت أود السؤال عن شيء، ولكني أحس بالخجل.

- لا داعي للخجل.. اسألي ما يحلو لك! أنا تحت أمرك.

- تُشكرين يا حبيبتي.. طول عمري أقول إن الست الـ . ..

- (أم عبده)! لدي عمل.

- حسنًا.. حسنًا.. من المعروف أنني لا أكتفي ببيع الخَضراوات والفاكهة، بل أقوم كذلك بتقطيعها وإعدادها وتجهيزها لمن يحب.. بازلاء، فاصوليا، بامية، جزر...

- نعم.. أراك تفعلين ذلك أثناء مروري بك.

- أقوم كذلك بإفراغ الفلفل والكوسة والباذنجان من القلب وإعدادها لعمل المحشي.

- نعم.

- الباذنجان الأبيض والباذنجان الأسود.

- حسنًا يا (أم عبده).. ما المشكلة؟

- الأبيض ليس فيه مشكلة.

- حسنًا.

- أما الأسود فهو سبب سؤالي.

- وما هو السؤال أصلًا؟

- العفو يا ست الحكيمة.. بعدما أقوم بالتعامل مع الباذنجان الأسود، ولأني أنهي عدة كيلوجرامات في اليوم، تصير يداي سوداوين كما ترين.

تقول ذلك وترفع كفيها أمامي.. تستأنف: «ولا يعجب ذلك (أبا عبده).. يقول لقد تزوجتك بيضاء، وأتوقع أن تظلي بيضاء.. ويقول إن من تكون سمراء اللون ويداها

بيضاوين، أو بيضاء اللون ويداها سوداوين، فهي مخادعة ومنافقة، وهو لا يحب المنافقين أو المنافقات».

- حسنًا.. وتريدين...

- وصفة لتبييض اليدين بعد الباذنجان الأسود.

- هل جربت الغسيل بالماء والصابون؟

- بالطبع.. ماذا تحسبينني بالضبط يا ست الحكيمة؟ الماء والصابون العادي، والصابون السائل، والصابون النابلسي، والصابون أبو رائحة، والآخر الغالي ذو الرائحة النفاذة.. ولا فائدة.

- حسنًا.. إليك هذه الوصفة.. بعد الغسيل بالماء والصابون عليك باستخدام...

- ثانية واحدة.. دعيني أخرج الهاتف وأسجل الوصفة؛ حتى لا أنساها.

- حسنًا.

- تفضلي!

- عصير حبة ليمون مع ملعقة صودا الخبز ويخلط جيدًا.. تضعين الخليط بعد ذلك على اليدين وتفركينهما جيدًا.. يمكنك ترك الخليط فترة قصيرة، ثم تغسلينه بالماء الدافئ.. ويمكنك تكرار ذلك عدة مرات، حتى تحصلي على النتيجة المرجوة لك ولـ (أبي عبده).

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. شكرًا يا ست الحكيمة.. ألف شكر.. يجعله الله في ميزان حسناتك.

- لا شكر على واجب.. والآن اسمحي لي! لدي عمل.

- والله أبدًا.. ليس قبل أن أهديك بعض الخضر والفاكهة.

- شكرًا لك، ولكن، كما قلت، لدي عمل الآن، ولا أستطيع أن أدخل على الناس بخيار وطماطم.

- حسنًا.. ولكني لن أنسى جميلك أبدًا.

- بعد إذنك.

- إذنك معك يا ست الحكيمة.. يا ست الستات.

***

وأقف أمام الباب.. أنتظر قليلًا حتى يفتح.

- عددت ثمانية أقفال.. هل أزلتِ قفلين منذ أن كنت عندك آخر مرة؟

- بل زدت ثلاثة.

- يا إلهي! واضح أنه قد صارت لي مشكلة مع موضوع العد هذا.

- تفضلي!

- شكرًا!

- ندخل في الموضوع مباشرة.. وصلتك رسالتي، أليس كذلك؟

- نعم.

- و...

- أجيبيني أولًا: هل تضعين لها أكلًا كافيًا؟

- قطعة جبن قديمة ورغيف خبز بلدي بائت.

- ثلاث مرات في اليوم؟

- مرة واحدة.

- هذا لا يكفي.. اجعليها ثلاث مرات.

- ولكن...

- وأضيفي شيئًا به سكر ليعطيها بعض الطاقة.

يأتي صوت (أم حنفي) من غرفة الفئران: «حلاوة.. أحب الحلاوة الطحينية!».

أستأنف الكلام: «لا بأس بالحلاوة».. يظهر عليها التبرم ولكن لا تقول شيئًا.

- والماء؟

- نصف زجاجة في اليوم.

- اجعليها زجاجة ونصفًا.

- ماذا؟

- إنها من الصنبور.. ما المشكلة؟

- حسنًا.

- سأتوجه للكشف عليها عبر نافذة الباب، ثم أقدم لك تقريري النهائي.

- حسنًا.. ولكن حاذري! قد تعضك.

تمد (أم حنفي) ذراعها عبر النافذة.. أضمها بين يدي.. ألاحظ بعض علامات الجفاف.. أبدأ في قياس النبض.. أفشل في العد مرة واثنتين وثلاثًا.. أحس ببعض الاضطراب، ولكن لا أبيّن شيئًا.

- لديها بداية جفاف.. ضعي لها ثلاث زجاجات ماء، وتأكدي أنها تشربها كلها.

- أمرك.

يأتي صوت (أم حنفي) من الداخل: «الحلاوة.. لا تنسوا الحلاوة! طلبتها من البنت التي تعمل في المطعم، عندما مرت عليّ، ولكنها لم تحضر لي شيئًا».

- الغائب حجته معه.. هل تريدين شيئًا آخر يا (أم حنفي) غير الحلاوة؟

- شكرًا يا حبيبتي.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

قبل أن أخرج، تشير إليّ السيدة إلى أنها، ستعتبر أن قسط المكواة لهذا الشهر، قد تم دفعه نظير هذه الزيارة المنزلية.. أشكرها وأخرج في طريقي إلى الموعد الثاني.

أعبر الشارع.. تشير إلى (أم عبده) بكيس الخضر والفاكهة الذي أعدّته لي.. أشير إلى أنني في طريقي إلى عملٍ آخر.. تهز رأسها وتدعو لي.

***

- تعرفين طبعًا أني قد تزوجت حديثًا.

- ألف مبارك.

- هي ليست زيجتي الأولى.. هي رقم.. رقم.. لا أذكر بالضبط، ولكنه عدد مكون من رقمين.. أم ثلاثة...؟ العدد في الليمون.

- حـ .. حسنًا.

- عفوًا.. لقد بدأنا الكلام على الفور، ولم أعد لك كوب شاي.

- شكرًا لك.. لا داعي.

- أبدًا والله.. سأدير لك أغنيةً تسليك حتى أعود من المطبخ.

- لا داعي لأيٍّ من ذلك.

- أرجو أن تكوني من الذين يحبون الأغاني الشبابية.. فهي الرائجة هذه الأيام.

- لا بأس بها.

تنطلق إلى المطبخ وينطلق صوت (محمد عبد المطلب) من المسجل: «السبت فات والحد فات وبعد بُكرة يوم التلات.. ميعاد حبيبي».

دقيقة وتعود: «لقد نفد (البن).. (سحلب)؟».

- حسنًا.

دقيقة أخرى وتعود: «ليس عندنا، ولم يكن عندنا أبدًا (السحلب) هذا».

- لا داعي لأي شيء يا حاجّة.. تفضلي استريحي وقولي لي ما الأمر؟

- سأحاول محاولة أخيرة.

- ...

***

تعود ومعها زجاجة مياه غازية كبيرة.. تفتح الغطاء وتشرب منها.. «وجدتها في الثلاجة.. فزوجي لا يشرب سوى المياه الغازية.. كولا أو برتقال».

- حسنًا.. والآن خيرًا يا حاجة؟

- سؤال يحيرني منذ أكثر من ستين سنة.

- نعم؟

- ما دام السبت فات والحد فات وبعد بُكْرة يوم التلات، ميعاد حبيبته، ففي أي يوم يغني (طلب)؟

- ماذا؟ أهذا ما جئت بي من أجله؟

- بالطبع لا، ولكنّ هناك موضوع آخر أهم بكثير.

- حسنًا.

- ولكن.. أعني في أي يوم كان يغني؟ الأحد؟ الإثنين؟ وكم كانت الساعة بالضبط؟

- يا حاجة! الموضوع.

- أي موضوع؟

- الموضوع الأهم بكثير!

- نعم.. نعم.. الموضوع وما فيه، أن هناك فارقًا في السن بيني وبين زوجي الجديد.

- ما دام هناك توافق فلا توجد مشكلة إن شاء الله.

- هناك حب ولكن موضوع التوافق هذا...

- نعم؟

- أعني.. هو.. صحته.. ليست...

- فهمت.. لا داعي للكلام.

- ولكني أحبه، وقلت لا بد من طريقة؛ لتقوية العلاقة بيني وبينه على أسس متينة.

- عين العقل.

- بصراحة أفكر في أن أنجب له ولدًا يحمل اسمه.

أتوقف عن التنفس لثوانٍ، ثم أقول متلعثمةً: «والمطلوب.. مني؟».

- أولًا محاولة معرفة اليوم الذي يغني فيه (عبد المطلب).

- نعم؟

- ثانيًا، بعض الفيتامينات والمقويات التي تساعدني...

- عفوًا يا حاجة، ولكن.. ولأسباب تتعلق بأنواع الفيتامينات والمقويات.. كم عمرك بالضبط؟

- ولدت في أول أيام الحرب العالمية.. أذكر أن أبي كان يذكرني دائمًا بذلك.

***

أفتح موقع المعلومات على هاتفي.. أجد أن الحرب العالمية الثانية قد بدأت في الأول من سبتمبر عام 1939.. أرفع رأسي من الشاشة.. أنظر إلى الحاجة ثم أعاود البحث.. يظهر لي أن الحرب العالمية الأولى قد بدأت في الثامن والعشرين من شهر يوليو عام 1914.

أغلق الموقع والهاتف.. أقوم من مكاني.. أفتح الباب وأخرج.. أسمعها أثناء ذلك وهي تسترسل في ذكرياتها عن أبيها وأمها وجدتها الكبيرة، وعن حبيبها التاسع، وعن زوجها الرابع والعشرين، وعن أخيها الذي شارك في بناء هرمي خوفو وخفرع، ولكن ليس منقرع، وعن الديناصور الأليف الذي كانت تربيه، و...

(أم عبده).. كيس الخضار والفاكهة.. عمل.. الباب.

- شيء جيد أنك أخبرتِني عن موضوع الجروح؛ حتى أحضر معي ما يلزم.

- طبعًا.. طبعًا.. (زوزا) غالية علي جدًا.. صحيح أنها الخادمة ولكني أعاملها مثل ابنتي تمامًا.

- أربعة جروح.. اثنان في اليد، وواحد في القدم اليمنى، والآخر في اليسرى.. أفهم أن يصعق المرء مرةً بالكهرباء، ولكن مرتين؟!

- الكهرباء؟ نعم.. نعم.. عادت.. جئنا بالكهربائي وأعاد التيار المقطوع.. كنت في حالة سيئة للغاية.

- ماذا؟ أصعقت أنت أيضًا؟

- صعقت من اختفاء قناة المسلسلات وقناة الطبخ.. لا أستغني عن أيٍّ منهما.. الحمد لله أن الغمة قد انزاحت.

- حسنًا.. تحتاج إلى غيار يوميًا.. ولا تعرضيها للماء.

تنتفض البنت مكانها، وتقول وهي تختلس النظر لسيدتها: «ماذا؟ وكيف أقوم بالتنظيف إذن؟».

- راحة لعدة أيام لن تضر.

- عدة أيام؟ لا يمكن.. لا يمكن أبدًا.

تتدخل السيدة في الحديث: «يمكنها الكنس، أليس كذلك؟ هذا لا علاقة للماء به.. أعني كي لا يصيبها الملل من كثرة الراحة وهكذا».

لا أقول شيئًا.. تتابع السيدة: «مثل ابنتي والله.. مثل ابنتي».

***

أجمع بقايا أدوات الغيار ثم أتجه ناحية الباب.. التفت بهدوء إلى السيدة وأسألها ببراءة: «عفوًا يا حاجة، ولكن ما هي فائدة تلك الأسلاك الكهربائية المتصلة بسرير البنت؟»

تفتح لي الباب وهي تقول: «نورت يا حبيبتي».

***

الحلاق

أقف أمام المحل.. أشد ظهري.. أنحني.. أفك القفل.. أرفع الباب.. أرفعه حتى النهاية.. يزداد الأمر صعوبةً يومًا بعد يوم.

أضع المفتاح في قفل الباب الخشبي.. أديره.. أدفع الباب وأفتحه على مصراعيه.. لا أمد يدي إلى مفتاح الإضاءة.. هذا الأمر أفعله إذا جاء من يريد الحلاقة.. عدا ذلك فضوء الشمس موجود.

أملأ الدلو بالماء وأخرج به إلى الخارج.. أرش منه على الرصيف بقدرٍ معلوم.. أرش حتى يتبقى بعض القليل من الماء في قعر الدلو.. أسكبه في حفرةٍ صغيرة في الرصيف بجوار الشجرة.. على الفور، تأتي قطتان وكلب لتشرب.. يتكرر الأمر بعد ذلك على مدار اليوم.

أعود بالدلو إلى الداخل.. أضعه في مكانه المعتاد في الركن البعيد.. أرفع الغطاء الكاروهات عن المذياع القديم.. أدير المفتاح.. المؤشر ثابت دائمًا على إذاعة الأغاني.

***

- صباح الخير.

- صباح النور يا عم (وديع).

- الشطائر!

- شكرًا لك.

- كالعادة واحد فول وواحد فلافل.. أود لو، في يوم من الأيام، لو تجرب شيئًا آخر.. بيض، بطاطس، باذنجان.

- أفعل ذلك، إن شاء الله، عندما ترى حلمة أذنك.

- أراها كل يوم في المرآة.

- ألا تجلس قليلًا!

- تعرف أن علي اللحاق بالمدرسة وتلاميذها.

- حسنًا.

- بمناسبة التلاميذ، هل مر عليك ولدان منذ قليل؟

- أي ولدين؟

- برأس أحدهما جرح صغير.

- لا.. ما الذي حدث؟

- أبدًا.. أصاب أحدَهما حجرٌ في رأسه بعد الفجر بقليل.. أغرق الدم المكان.. نصحتهما بالمرور عليك لعمل بعض الإسعافات الأولية.. أعرف أنك تحتفظ بقطن وشاش ومطهرات لزوم ما تسببه لمن يحلق عندك.

- بعد الفجر بقليل؟ لم أكن قد فتحت بعد.. ومن أين جاء ذلك الحجر في مثل هذا الوقت؟

- لا أعرف بالضبط.. هو على العموم، موضوعٌ يطول شرحه، يتضمن هاتفًا وراقصة وشبابًا صائعًا لا رجاء منه.

- ماذا؟ اجلس! اجلس يا عم (وديع)، بالله عليك.. وقص عليّ ما حدث!

- والمدرسة؟ وتلاميذها؟ وشطائر الفول والفلافل؟ على العموم، أليس غدًا الثلاثاء؟ أراك إذن في موعدنا المعتاد، وساعتها سأقص عليك الحكاية من طأطأ إلى السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

***

يقف الرجل بعربته أمام المسجد قبل شروق الشمس.. يخرج الناس من الصلاة،

فيجدون الشطائر والمخلل أمامهم.. يظل هناك حتى الثامنة، ثم يتحرك صوب مجمع المدارس القريب، ويظل هناك حتى نهاية اليوم الدراسي.

أقع في منتصف الطريق بين المسجد والمدارس.. اتفقت معه أن يمر عليّ كل صباح بشطيرتين.. شطيرة فول وشطيرة فلافل دون مخلل.. المخلل في أول الشهر فقط والجمعة إجازة.

لا أنقد الرجل أية نقود، ولكن في الثلاثاء من كل أسبوع، أقوم في المقابل بتهذيب شعر رأسه.. الشعر قليل، فلا يستغرق الأمر مني في الحقيقة وقتًا طويلًا.. ولكني أتعمد إطالة الوقت؛ لنتجاذب أطراف الحديث.. فالرجل حديثه مسلٍّ، ولديه دائمًا قصص مثيرة.

Telegram:@mbooks90

***

- هل ربطت الحمار بعيدًا عن الصالون؟

- نعم.. ربطته في غرفة النوم.

- ماذا؟ أتهزل يا (أبا عبده)؟

- أعرف أنك لا تحب أن أربط الحمارة أمام بابك، ولو أني لا أعرف العلة في ذلك.. على العموم، أحترم رغبتك دائمًا.

- ماذا يقول الناس يا (أبا عبده) عندما يرون حمارًا...؟

- حمارة.

- نعم؟

- حمارة.. هي أنثى وليست ذكرًا.

- حسنًا.. ماذا يقول الناس عندما يرون حيوانًا من جنس الحمير، يقف أمام المحل في الانتظار؟

- ماذا سيقولون؟

- سيقولون إن هذا المحل يخدم الحمير، وإن هذا الحمار...

- الحمارة.

- إن هذه الحمارة هي إحدى زبائن المحل.. وإنهم إذا دخلوا المحل عندي فهم من نفس عينة الحمار.. أي أنهم حمير.

- والله الحمير أحسن منهم.

- كفى كلامًا عن أقربائك! هيا اجلس!

- ليس اليوم.. جئت لموضوعٍ آخر.

- ولماذا ليس اليوم؟ إن خصلات شعرك بارزة من تحت غطاء رأسك.

- لدي أعمالٌ كثيرة اليوم.. إنما جئت لسؤالٍ سريع.. يا ليتني أجد إجابةً له عندك.

- حسنًا.. تفضل اسأل!

- هو سؤال بخصوص.. بخصوص...

- بخصوص ماذا يا (أبا عبده)؟

- بخصوص.. بخصوص.. الباذنجان.

- نعم؟

- بما أنك حلاق ولك في مسائل النظافة والطهارة وما شابه، فكنت أود معرفة طريقة إزالة اللون الأسود من اليدين، بعد تقشير الباذنجان الأسود.

- ما هذا السؤال الغريب؟ هل جربت الماء والصابون؟

- لا أعرف.. فالأمر متعلقٌ بـ (أم عبده).. تسودُ يداها عندما تقوم بتقشير الباذنجان، ولا يعجبني ذلك.. بل إنني صرت أفكر جديًا في تطليقها، والزواج من ابنة (حمدي) صائد الفئران.. هي بنت بيضاء وذات يدين بيضاوين.

- لا تتسرع يا (أبا عبده)! على العموم، لقد واجهت مثل هذه المشكلة قبلًا.. جاءني أحدهم، منذ عدة سنوات، وكان يعمل في إعداد الأحبار السوداء لأجهزة الطباعة في الصباح.. وفقه الله إلى عمل آخر في المساء مع أحد أقاربه.. وذلك في كي البياضات الخاصة بالفنادق.

- البياضات؟

- أغطية أسرّة، مفارش، شراشف، أغطية وسائد، أشياء من هذا القبيل.. وكلها بيضاء اللون.. وكانت مهنة الصباح بذلك تتعارض مع مهنة المساء.. طلب مساعدتي في إيجاد حلٍّ وإلا خسر الاثنتين.

- أوَكان متزوجًا من اثنتين؟

- يا إلهي! أعتقد أن موضوع الحمير هذا مُعدٍ.

- ماذا تعني؟

- لا شيء.. اكتب عندك! أحضر ملعقة من صودا الخبز، وصب فوقها بعض الخل الأبيض بالتدريج، حتى يصبح الخليط متماسكًا إلى حدٍّ ما! ضع الخليط على اليدين وافركهما جيدًا بالماء الدافئ والصابون!

- شكرًا.. شكرًا لك.. ألف شكر.. جميل لن أنساه لك أبدًا.

- العفو.. ولكني لم أرك تكتب شيئًا.

- في الحقيقة، أنا لا أعرف الكتابة.

- ماذا؟ هل حفظتها إذن؟

- في الحقيقة، أنا لا أعرف الحفظ.

***

يمتلك (أبو عبده) سيارة نصف نقل، وسيارة أخرى ربع نقل.. سمعت، مؤخرًا، أنه ينوي شراء سيارتين ثُمن نقل لتكتمل المجموعة.. يفضل الرجل، مع ذلك، التنقل

بواسطة حمارته العزيزة.. يحمل عليها الخضر يوميًا، ويقوم بتوصيلها إلى حيث تكون (أم عبده) في الانتظار؛ لتقوم هي بالبيع والتسويق.. (أم عبده)، من ناحيتها، تصل راكبةً سيارة أجرة تحاسبها بالشهر.. عرضت، في البداية، على السائق أن يتقاضى أجره خضرًا وفاكهة ولكنه رفض.. عرض هو عليها أن يتم ذلك باستخدام اللحوم أو الدواجن، إلا أنها رفضت بإباء، وقالت إنها نباتية أبًا عن جد.

***

- صباح الخير يا أستاذ.

- ...

- أشرقت الأنوار.

- ...

- الشارع نوّر بنور العلم.

- ...

- مدرسنا يا ...

- ...

- تفضل قليلًا!

- ...

- الجلسة هنا ترد الروح.

- ...

- هناك شاي وقهوة وينسون وتيليو ومغات وكركديه وتمر هندي على كيفك.

- ...

- يمكنني إعداد شطائر لك.. ليس فولًا أو فلافل والله.. هناك كبدة وهناك مخ و...

- ...

- يمكننا أن نلعب دومينو أو طاولة أو شطرنجًا.. لدي كل شيء.

- ...

- ألف سلامة.

- ...

- ألف ألف سلامة.

- ...

- أمير والله هذا المدرس ومجامل إلى أقصى درجة.

***

يمتلك الرجل ويدير مركزًا للدروس الخصوصية في آخر الشارع.. المركز يعمل صباح مساءَ، والتلاميذ لا ينقطعون عنه.. ابتدائي، إعدادي، ثانوي.. لا يغلق قبل الحادية عشرة مساء.. سمعت أنه يقوم بعد ذلك بإعطاء دروس لبعض الطلبة المحتاجين، ودون مقابل مادي.

أتعمد تحيته في كل مرة يمر فيها أمام محلي.. فهو يركن سيارته خارج الشارع الضيق، ويسير المسافة الباقية للمركز.. أود لو يسمح لي مرةً بقص شعره، أو حتى تهذيب لحيته الكثة.. ساعتها ومع الدعاية المناسبة، سيتسابق تلاميذ المركز للحلاقة عندي؛ تشبهًا بأستاذهم المحبوب.

ساعتها سأنزل كذلك بعروضٍ خاصة، أسيطر بها على سوق الحلاقة في المنطقة.. «ثلاثة رءوس بسعر اثنين».. «لوّن واحلق!».. «خصم عشرين في المائة، لمن يحلق قبل التاسعة صباحًا أو بعد العاشرة مساءً».. على المرء أن يفكر دائمًا في أفكارٍ جديدة ليستطيع المنافسة.

***

- كم مرة قلت لك ألا تمر من أمام محلي؟

- أسير في شارع الحكومة.

- أمام محلي.

- شارع الحكومة.

- هذا محلي وصالوني ومكاني من قبل أن تولد، وقطعًا من قبل مجيئك من بلدكم.

- كل إنسان يبحث عن رزقه.

- أوَترد علي؟

- كلنا أولاد تسعة.

- سأتحدث مع الحاج بشأنك.

- أنا لم أخطئ في حقك أبدًا.. أنا أسير في الشارع حاملًا طلبات الزبائن.

- لا تنسَ أنك مجرد عامل توصيل.

- عن إذنك.. لقد أضعت وقتًا ثمينًا فيما لا طائل من ورائه.

- ماذا؟ ماذا تقول؟ والله لأشكونَّك للحاج عندما يمر علي للحلاقة.

- افعل ما يحلو لك.. وبالمناسبة، إن الحاج سيتوقف عن الحلاقة عندك من الآن فصاعدًا.

- ماذا؟ ولمَ إن شاء الله؟

- لأنه صار يحلق في مكانٍ آخر.

- ماذا؟ من الذي يحلق للحاج الآن؟ تكلم!

- أنا.

كانت هذه، بالضبط، هي مشكلة هذا العامل.. يحاول دائمًا عمل أشياءَ لا علاقة لها

بمهنته الأصلية.. واحد مثله لم يسمع طبعًا عن الوصف الوظيفي.. والوصف الوظيفي، كما أوضح لي أستاذ العمارة رقم ثلاثة، الدور الرابع، هو عبارة عن متطلبات الوظيفة، أو ما هو المطلوب من أدائه؛ ليصبح جديرًا بمسمى الوظيفة.. هذا عامل توصيل، أي أن كل ما عليه هو توصيل الطلبات من النقطة ألف إلى النقطة باء.. ألف هي محل البقالة، وباء هي مقر الزبون.. ولكنه لا يكتفي بذلك.. يقوم بتوصيل الأولاد إلى المدارس، يقوم بطهي الطعام، تنظيف السلالم، الوقوف في الطوابير بدلًا ممن يفترض وقوفهم فيها، رفع الأذان في المسجد، إصلاح أي وكل ما يمكن إصلاحه، التسرية عمن يحسون بالملل، مغازلة كل من تحتاج إلى كلمتين حلوتين، إطعام الحيوانات الضالة، زيارة الأيتام، التردد على المقابر وقراءة الفاتحة، نيابةً عمن يجد المشقة في ذلك.. والآن: الحلاقة وقص الشعر.. طفح الكيل.. لقد جنت على نفسها بَرَاقش.. تخطى الرجل الخطوط الحمراء، ولا بد من وقفةٍ جادة.

***

«يا أرض احفظي ما عليك! ما كل هذا الجمال؟! ماذا يفعل الإنسان أمام كل هذا السحر؟ عاشق ليالي الصبر مداح القمر.. نار يا حبيبي نار.. يا رب حنن علينا خلقك.. كعب الغزال يا متحنّي.. عيونك شمعة وضحكة وبحر ونسمة صيف.. آهٍ من الأيام آه لم تعط من يهوى مناه.. نظرة يا جميل تشفي العليل.. حكيمة وجمالها كله حكم».

طبعًا، لا أقول أيًّا من هذا الكلام بصوتٍ عال.. أقوله في داخلي.. أقوله لنفسي.. أقوله وأصرخ به وأهتف وأدعو وأتمنى وأحلم.. ولا أجرؤ على فتح فمي أو غلق عيني وهي تمر أمامي.

بالنسبة للمارة وللأناس العاديين، أنا الرجل صاحب محل الحلاقة الجالس على كرسي أمام محله.. تظلل عليه شجرة كبيرة تنزل منها العصافير؛ لتشرب من الخزان الصغير الذي يملؤه لها كل صباح.

بالنسبة لي، أنا العاشق الولهان الذي ينتظر اليوم كله ليرى محبوبته، فيكحل عينيه بمَرآها.. اليوم كله أقضيه بين الانتظار والترقب والأمل والحلم.. تعذبني أغاني الحب المنسابة من المذياع.. تعذبني وتؤلمني وتصيبني بالجنون، وأيضًا تطيب خاطري

وتصبرني وتمنيني وتشفي جروحي.

أما هي فلا تراني أبدًا، بل ولا تنظر ناحيتي أصلًا.. وجهها دائمًا مسمَّرٌ على هاتفها النقال، وحركتها دائمًا سريعة من بيت إلى بيت، ومن شقة إلى شقة.. تداوي هذا، وتضمد جرح ذاك.. تقضي الوقت كله منذ عودتها من المستشفى، وحتى عودتها إليها في رعاية أناس الشارع وسكانه.. وأنا؟ ألا أحتاج إلى رعاية؟ ألست من أناس هذا الشارع؟ ألست من بني آدم وحواء؟ الرحمة! الرحمة يا ملاك الرحمة!

***

- أهذا صالون الحلاقة؟

- لا هذا مطعم دجاجي للدواجن المقلية.. تلميذ ولا تعرف القراءة؟ بالطبع هذا صالون الحلاقة.

- أ.. أعرف.. إنما كنت أحاول فتح الكلام.

- أتريد الكلام أم تريد الحلاقة؟ تفضل إلى الكرسي!

- لا.. لا.. أعني.. لا.. لست...

- لا تريد الكلام أم لا تريد الحلاقة؟

- لا هذا ولا تلك.

- إذا كنت تبحث عن عربة الفول، فقد اتجه عم (وديع) منذ فترة إلى مجمع المدارس.. تجده هناك.

- لا.. لقد أفطرت في البيت.. إنما...

- تريد الأستاذ المدرس؟ كان جالسًا معي منذ قليل نفطر ونتسامر.. تجده الآن في المركز.. قل له إنني من دللتك عليه!

- لا.. لا أريد الأستاذ.. أعني لا أريده الآن.. فأنا أذهب إلى المركز و... إنما...

- لا تقل لي إنك تبحث عن العامل الخاص بالتوصيل!

- لا.

- حسنًا.. بالله عليك.. ماذا تريد بالضبط؟

- أ.. أريدك أن.. تأتي معي.

- نعم؟

- أعني.. الأستاذ في الدور الرابع من تلك العمارة.. العمارة رقم ثلاثة.. التي على الناصية...

- نعم، أعرفه.

- هو يطلب منك الحضور لقص شعر ابنه في المنزل.

- الولد صاحب حادثة السيارة؟

- ليست.. سيارة.. نعم.. هو ذلك الولد.

- حسنًا.. نخدم الأستاذ بعينينا.. الرجل جمائله علينا كثيرة.. دقائق وأذهب معك.

***

ظهر هذا الولد منذ عدة أسابيع مع أخته الصغيرة وأرنبها في المنطقة.. يسكن مع الأستاذ وأسرته.. أراهما في الطريق من وقتٍ لآخر.. سمعت عنهم أشياء كثيرة.. فرصة كي أعرف السبب الحقيقي وراء وجودهم هنا.

أطلب من الولد الانتظار قليلًا خارج المحل.. أفتح حقيبتي.. أخرج عدة أكياس من الخزانة.. أضع المقص في أول كيس.. المقص الآخر، ذو الأسنان الكبيرة، في الثاني.. المشط الكبير.. المشط المتوسط.. المشط الصغير.. كلٌ في كيس.. الفرشاة الكبيرة.. الفرشاة المتوسطة.. الفرشاة الصغيرة.. كيس.. كيس.. كيس.. علبة بودرة التلك، ماكينة الحلاقة اليدوية، الأمواس.. أكياس.. أكياس.. أكياس.. أغلق الأكياس كلها.. أغلق الحقيبة.. أغلق الباب الخشبي بالمفتاح.

أسير مع الولد وأنا أقول: «كنت أخرج الأدوات من جهاز التعقيم.. أهم شيء للحلاق ولطبيب الأسنان هو التعقيم».

يهز الولد رأسه مؤمنًا.. أستأنف: «أستخدم جهاز للأشعة فوق الكاروهات».

- نعم؟ فوق الكاروهات؟

- أحدث ما نزل إلى السوق.

- حسنًا، ولو أني...

- بمناسبة الأسواق والعروض.. هناك عرض خاص هذا الشهر.

- نعم؟

- ثلاثة رءوس بسعر رأسين، ولا يهم العمر أو كثافة الشعر.

- حسنًا.

- اعرض الأمر على الأستاذ.

- حسنًا.

- الأستاذ والولد وأنت.. أو حتى أنت وصديقك والأرنب الصغير.. ثلاثة رءوس بسعر رأسين.. ما رأسك؟ أعني ما رأيك؟

***

البائعة

بصورةٍ رسمية، لا يعتبر هذا محلًا للبقالة.. بصورةٍ فعلية، هو محل للبقالة.. الأمر بسيطٌ للغاية.. الشقة في الطابق الأرضي.. النافذة تطل على الشارع.. النافذة واسعة بما فيه الكفاية.

أفتح النافذة في أول اليوم وأجلس خلفها.. في الغرفة والغرف الأخرى أرفف وأجولة وكراتين مليئة بالبضائع.. يطلب الناس.. أمد يدي وأناول.. لا يشترط طبعًا أن يكون الشخص حاضرًا بنفسه.. هناك الهاتف، وهناك طريقة النداء من نافذة شقة العميل بصوتٍ عال.

كيس أرز زنة كيلوجرام واحد، علبة صلصة، مغلف شاي صغير.. أمد يدي وأناول.. أتناول النقود.. أضعها في علبةٍ مخصصةٍ لذلك.. العلبة على الأرض، بعيدًا عن متناول من هم خارج النافذة.. أمسك القلم وأدون ما تم شراؤه، حرصًا على الشفافية أمام الشركاء.

كيس سكر زنة كيلوجرام واحد، أربع بيضات، ثُمن كيلو جبن أبيض وقطعتَي حلوى.. أضع الطلبات في كيس، وهو ما أفعله فقط إذا تجاوز عدد الطلبات الأربعة طلبات، أو إذا كان هناك بيض في الموضوع.. النقود.. القلم.. أدون.

كيس مكرونة هلالية وبجنيه ملحًا.. طبعًا هذا لا يستحق كيسًا.. أي كيس.. لا ورقي ولا بلاستيكي.. النقود.. القلم.

دقيق، سكر، زجاجة زيت خليط، علبة مربى مشمش.. وتتعدى الطلبات الأربعة.. بسكويت بالشيكولاتة، كيس رقائق ذرة، كيس بطاطس مقرمشة، ربع كيلو جبن رومي.. بالكاد يتسع الكيس للطلبات كلها.. النقود.

***

أفتح النافذة.. أضع كوب الشاي على حافتها.. أجلس.

- هل هذا الكوب الخاص بي؟

- كالعادة.

- حسنًا.. تفضلي!

- صباح الفل.

وتتوالى الأكواب التي أعدها وأبيعها لمن يرغب.. شاي عادي، شاي بالحليب، شاي بالنعناع، قهوة تركي، قهوة بالحليب، نسكافيه، إسبريسو، كابوتشينو، حلبة، سحلب، حمص الشام، كركديه.. القائمة طويلة.. النقود.

***

- صباح الخير.

- صباح الفل يا ست الستات.

- الله يسعدك.

- طلباتك يا جميل.

- لا شيء لي، ولكن أود إرسال زجاجتَي مياه غازية، واحدة كولا والثانية برتقال إلى شقة ماما.

- أوَعادت الحاجة إلى شقتها؟

- بالأمس.

- ومن العريس؟

- وهل لذلك أهمية؟ تعرفين الحاجة.

- على العموم، ألف مبارك.. سأرسل المطلوب على الفور.

- شكرًا لك.. تفضلي النقود!

- النقود! نعم.. صباح الفل.

أعد الزجاجتين.. لا أضعهما في كيس.. يمكن لعامل التوصيل حمل واحدة في كل يد.. أطل من النافذة.. لا أراه هنا ولا هناك.. أنادي عليه بصوتٍ عال.. لا يلتفت إليّ سوى كلب صغير، يشرب من بركة الماء التي أمام صالون الحلاق.. لعل العامل يقوم بتوصيل طلبات محله الأصلي.

***

- صباح الخير.

- صباح.

- كيف الأحوال؟

- هل تريد شيئًا؟

- لا.

- إذن لماذا الحديث وتضييع الوقت والمجهود؟

- ماذا؟ لا داعي لكل هذا الانفعال.. إنما كنت أقول صباح الخير.

- أنت لا تشتري مني شيئًا.. أعيد صياغة هذه الجملة.. أنت لم ولا ولن تشتري مني شيئًا أبدًا.. لديك كل شيء في محل الحلاقة الخاص بك.. لديك شاي وقهوة ومشروبات أخرى منها العادي ومنها الممنوع.

- ماذا؟

- لديك سجائر ومعسل.. لديك شطائر ومأكولات.. لديك صابون ومنظفات.. لديك أغانٍ وألعاب.. ولديك ولديك ولديك.. أرجوك دعني في حالي! وحل عن سمائي!

***

«بيع قلبك.. بيع ودك.. شوف الشاري مين».. رنة هاتفي المحمول.. أرد فيما يبتعد الحلاق السمج وهو يتمتم.. خادمة الحاجة تستعجل المنظفات التي طلبتها في الصباح الباكر.. أطمئنها أنها في الطريق إليها مع العامل.. أذكّرها بالمبلغ الذي ستدفعه

له.

***

- علبة سجائر وولاعة.

- تفضل يا أستاذ!

- حسنًا.. هل لديك أبناء أو بنات عندي في مركز الدروس؟

- لا.

- هل لأحدٍ من أقربائك أولاد أو بنات عندي في مركز الدروس؟

- لا.

- هل لأحد من أصدقائك أو معارفك، أولاد أو بنات عندي في مركز الدروس؟

- لا.

- هل تودين معرفة مكان مركز الدروس؟

- لا.

- إذن لا مجال هناك، لخصم ثمن علبة السجائر والولاعة، من رسوم أي شخص من طرفك، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنًا.. تفضلي النقود!

- نعم! النقود.

***

أثبّت غطاء رأسي.. أقوم من مكاني وأطل بجسدي من النافذة.. أنظر يمينًا.. أنظر يسارًا.. لا أثر له.. تأخر التوصيل للزبائن.. المياه الغازية والمنظفات.. أفكر في توظيف

عاملٍ خاص بي بدلًا من ذلك العامل.

***

أسمع صوت عربة عم (وديع) تقترب.. أكاد أضبط الساعة على موعد مروره اليومي.. أعدل من وضعي.. أعطي ظهري للنافذة.. أتابع ما يحدث عبر المرآة المثبتة على الجدار المقابل للنافذة.

لا يلتفت الرجل ناحيتي أبدًا.. لا هو ولا صاحب المقهى ولا صاحب محل البقالة القريب من الناصية.. يرى ثلاثتهم فيّ منافسًا لهم.. فليذهبوا إلى الجحيم! أحرص، نكايةً فيهم، أن أنقص خمسين قرشًا، على الأقل، من أي شيءٍ مما أقوم ببيعه، ويقومون هم كذلك ببيعه.. بهذه الطريقة، أصير الخيار الأول لأي مشترٍ في الشارع والمنطقة.

أنتبه إلى أن (أم عبده) تنظر ناحيتي.. أشير إليها محييةً.. ترفع يديها بالسلام وتدعو لي بصوتٍ عال.. أرسل لها قبلةً في الهواء.. تتلقفها وترد باثنتين.. نضحك بصوتٍ عال.. (أم عبده) هي الوحيدة التي لا أبيع شيئًا تبيعه، ولا هي تبيع شيئًا أبيعه أنا.. فليدم الله المحبة بيننا.

***

تمر البنت من أمامي.. تلوح لي.. ألوح لها.. تتجه مع أخيها إلى (أم عبده).. تقول لها شيئًا وهي ترفع دميتها.. تناولها (أم عبده) جزرة.. تتبادل حوارًا مع أخيها.. تغلظ له القول.. يتدخل صديقه.. يسحبه بعيدًا.. يلفت نظري أنه لم يدفع ثمن الجزرة.

- قطعة شيكولاتة، ومغلف بسكويت بالفراولة، وكيس بطاطس مقرمشة.

- أي نوع؟

- أي نوع.

- شيئًا آخر؟

يعصر أفكاره.. يفشل في التذكر.. يشير إلى أخته.. تقترب.. يعيد عليها ما طلبه

مني.. تضيف: «ومصاصة بالتوت».. تنظر إليّ البنت وتقول: «لو عليّ ما كنت طلبت شيئًا.. فأنا أعرف الظروف.. إنه (أرنوب) هو الذي لا يتوقف عن الطلب».

- أسيأكل (أرنوب) كل هذا؟

- بالطبع لا.. (أرنوب) لا يأكل سوى الجزر.

- ماذا إذن؟

- يصر (أرنوب) أن يشتري لي أنا كل هذه الطلبات.

- يشتري؟ وهل يمتلك (أرنوب) مالًا؟

- بالطبع، ولكنه يجعل أخي أو صديقه يدفعان أمام الناس ويقوم هو بالدفع لهما في البيت.

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. وكم يمتلك (أرنوب) بالضبط؟

***

أراها قادمةً من بعيد.. أهم بالقيام لمقابلتها.. أنتبه إلى أنها تنظر إلى انعكاسها في المرآة.. أظل جالسة مكاني.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. أهلًا يا قمر المكان.

- كيف حالك يا خالتي؟

- بخير.. نحمده.. كيف حالك أنت؟ ألا من عريس؟

- يسهل ربنا.

- إن شاء الله.. طلباتك؟

- لا أريد سوى ثمن كيلو حلاوة.

- فقط؟

- ليس لي.. إنه لـ (أم حنفي).

- فك الله سجنها.

- طلبت مني خبزًا وحلاوة عند زيارتي القادمة لها.

- حسنًا.. أكثر الله من أمثالك.. ولكن.. أعني.. هل ستدخلين عليها بثمن كيلو فقط؟ على الأقل ربع أو حتى نصف كيلو.

- عندك حق، ولو أنهم خصموا لي مبلغًا كبيرًا من الراتب هذا الشهر.. ولكن.. نعم.. فليكن ربع كيلو.

- والخبز؟ نقول عشرة أرغفة؟

- يكفي خمسة.

- وهل ستدخلين عليها...؟

- لا أعرف إذا ما كان سيسمح لي أصلًا، بالدخول إليها في غرفة الفئران.

- حسنًا.. كما تحبين.. والطلبات الخاصة بك؟

- ليس الآن.

- حسنًا.

- أفكر في موضوع لمساعدة (أم حنفي).

- غير الخبز والحلاوة؟ نقول غداءً كاملًا؟

- لا.. لا.. لا أعني ذلك.. أفكر في أن يدفع كل شخص مبلغ من المال، كلٌّ حسب استطاعته، نجمع كل تلك الأموال وندفع عن (أم حنفي) الأقساط المتأخرة.

- ماذا؟ ندفع؟ ماذا تعنين بـ (ندفع)؟

- أعني الناس لبعضها.

- وهل أخذت السيدة (أم حنفي) رأينا عندما اشترت كل ما اشترت؟ بوتوجاز خمس عيون وأنبوبة ومنظم.. خلاط بثلاث سرعات.. بطانية وزن 6 كيلو.. قِدر طبخ جرانيت بني اللون.. طقم كامل ملابس داخلية من الصوف.. ما لنا نحن بكل هذا؟ وكما يقول المثل: على قدر لحافك.. مد رجليك! بالله عليك لماذا تشتري خلاطًا بثلاث سرعات؟ لماذا لا تكتفي بسرعتين فقط؟

- حسنًا.. إنما.. يعني...

- تفضلي الخبز والحلاوة! أية طلبات أخرى؟

- شكرًا لك.

تدفع وتبدأ في الابتعاد.. تتوقف فجأة.. تلتفت وهي تقول: «هل لديك علكة بطعم البرتقال؟».

- سكري، بلدي، أم بسرّة؟

- بلدي.

- موجود.

***

أخفض صوت قارئ القرآن، القادم من المذياع قليلًا.. أطل من النافذة.. أنادي بأعلى صوتٍ، على عامل التوصيل.. لا حياة لمن تنادي.. أعود إلى الكرسي.. أخرج الهاتف النقال.. أطلب رقمه.. إجراء لا أحب القيام به أبدًا فالدقائق تكلف، وقديمًا قالوا: الوقت من ذهب.. أطلب الرقم.. أدعه يرن مرة واحدة ثم أضغط مفتاح الإغلاق.. أنتظر قليلًا عله يتصل.. دقائق وأعيد الكرة.. أنتظر ولا يتصل.

***

- قطنًا وشاشًا وكحولًا تركيز 90 في المائة ورباطًا ضاغطًا.

- كيلو قطن؟

- نصفًا.

- ثلاثة أمتار شاش؟

- لفتين مقاس عشرة سنتيمترات.

- كحولًا تركيز 85 في المائة؟

- 90.

- ثلاثة أربطة ضاغطة حجم كبير.

- رباطين حجم متوسط.

- وماذا أيضًا يا ست الحكيمة؟

- علبتين من محلول معالجة الجفاف.

- لـ (أم حنفي)؟

- نعم.

- سيرتها لا تنقطع اليوم.

- علبة مسكن.

- أي نوع؟

- أي نوع.. وعلبتَي مضاد حيوي 250 مليجرامًا.

- حسنًا.. عاديًا أم قرب انتهاء الصلاحية؟

- ...

- النوع الثاني عليه خصم 22 بالمائة.

- حسنًا.

- ولكن للأمانة لا بد من استعمال العلبتين قبل الحادية عشرة مساءً.

- ماذا؟ لن ينفع.. أعطني العادي وأمري إلى الله.

- يمكنني إعطاؤك شرائط دون علبة، بخصم واحد ونصف في المائة.

- حسنًا.

- أية طلبات أخرى؟

- نعم.. شطيرة جبن بالطماطم.. أكاد أموت جوعًا.

- طماطم طازجة أم منذ عدة أيام؟

- ...

- الطازجة أغلى بخمسة في المائة.

- حسنًا.. الأخرى.

- أعددتها بمجرد أن رأيتك في الشارع منذ قليل.

- شكرًا لك.

- تفضلي!

- تفضلي النقود!

- النقود!

***

وقف أمامي وقال: «سمعت أن لديك غرفةً للإيجار».. رددت دون أن أرفع نظري إليه: «الإيجار للفتيات والآنسات فقط».

- ألا توجد استثناءات؟

أرفع رأسي إليه.. أفاجأ به وبطوله وعرضه.. أبتسم قليلًا وأسأله: «ولماذا تريد

السكن في هذا الشارع بالذات؟».

- جئت من الصعيد الشهر الماضي، وأعمل الآن في محل البقالة الكبير، الذي على تلك الناصية.

- ماذا تعمل هناك؟

- أوصل الطلبات.

- حسنًا.. العمل ليس عيبًا.

- هذا هو ما قلته لنفسي.

- وهل يمكنك العمل معي لتوزيع الطلبات للزبائن بالإضافة إلى عملك في المحل؟

- أعتقد أنه يمكنني التوفيق بين الاثنين.

- حسنًا.. نبدأ مَن الغد.

- شكرًا لك.. وبالنسبة لموضوع السكن؟

- هناك حالة واحدة فقط تسمح لك بالسكن هنا.

- ما هي؟

وتزوجنا، والحق يقال إن العمل صار أفضل كثيرًا، مع وجود نظام لتوزيع الطلبات.. بدأ الأمر بشارعنا، وصرنا الآن نوزع في أربعة شوارع أخرى.. وكنت أعتقد أنه يمكننا الوصول بالتوزيع إلى ثمانية أو تسعة شوارع إضافية.

وطبعًا استمرار الحال من المحال.. ألاحظ، في الآونة الأخيرة، أنه قد صار يتلكأ كثيرًا، ويتأخر أكثر من اللازم.. جعلني ذلك أفكر في الاستغناء عنه، والاتفاق مع عامل جديد.. واليوم، طفح الكيل.. عندما يهل بسلامته، سأضعه أمام خيارين: إما الانتظام في العمل، أو الطلاق.

***

صاحب البيت

يتغير الأمر بعض الشيء.. أخرج من إدارة الحي رجلًا غير الذي دخلها منذ قليل.. كنت صاحب بيت.. الآن، وحسب الورقة الرسمية التي أحملها في يدي، صرت صاحب بيتٍ آيلٍ للسقوط.

ليس التغيير بكبير، ولكن بالقطع هناك تغيير.. أعني أنا ما أزال قادرًا على المشي بسرعةٍ معقولة.. أتنفس، أرى، أسمع، أشم، أتذوق، أتكلم.. يشهد على ذلك كل من قابلتهم اليوم.. ما أزال قادرًا على تحريك يدي، تحريك ساقي، ذراعي، الرأس، العنق.. الأمور مبشرة، بعض الشيء.. ولكن.. ماذا كنت أقول؟

أسير على الرصيف وأنا أحاول التفكير في خطوتي التالية.. قبل أن أبدأ في التفكير الجِدي، أفاجأ بمجموعةٍ من الفتيان بلباس المدرسة وهم يقطعون الطريق أمامي ويصرخون: أهلي! أهلي! أنزل من الرصيف إلى نهر الشارع.. تقترب مني مجموعةٌ أخرى، أصغر قليلًا وتصيح: زمالك! زمالك! أعود إلى الرصيف.. تتواجه المجموعتان وتبدآن في التراشق والتلاسن.. تتطاير، من هنا ومن هناك، بعض الشتائم والكلمات النابية مغلفةً بضحكات الاستهزاء والسخرية.. يكاد بعضها يصيبني في رأسي.. أنزل من الرصيف بسرعة، وأعبر إلى الرصيف الآخر.

***

أسير مبتعدًا وأنا أحاول استعادة عملية التفكير في خطوتي التالية.. عند الناصية الثانية، أفاجأ بفتاة، أعتقد أنني أعرفها، وهي تهم بخلع حذائها لتضرب به شابًا يحاول التحرش بها.. قبل أن أنتبه تمامًا إلى ما يحدث، تظهر مجموعة من الكلاب فتهاجم الشاب وتدفعه إلى الجري بعيدًا.. يعبر الفتى المذعور الشارع، ثم يصعد فوق إحدى السيارات محاولًا الفرار من الكلاب.. أستمر في طريقي.

***

- هل رأيت ذلك الحيوان؟

- حيوان واحد؟ لقد كانت على الأقل ستة كلاب.

- ماذا؟ أعني ذلك الحيوان الذي صعد على مقدمة السيارة.. لقد تسبب في اتساخها.

- احمد الله أنه لم يترك انبعاجًا على جسم السيارة.

- كنت نزلت من السيارة وألقيت به بنفسي للكلاب.

- قدّر ولطف.

- وكيف حالك أنت؟ هل أنت قادم من الحي؟

- نعم.

- هل هناك أخبار جديدة؟

- لا.. ما يزال البيت آيلًا للسقوط.. الفارق الوحيد أن معي الآن ورقةً رسميةً بذلك.

- ولكن ذلك لن يؤثر على مركز الدروس، أليس كذلك؟

- ...

- أعني أن بيننا عقدًا، ونحن الآن في منتصف العام الدراسي، ولا أستطيع الانتقال إلى مكانٍ آخر.

- ...

- ينتهي العقد بعد سنتين، ولن أتحرك سنتيمترًا واحدًا قبل نهاية العقد.

- ...

- شيء جيد أننا متفقان على ذلك.. وما موضوع انهيار البيت وغيره من الكلام الفارغ، إلا حركات من العاملين في الحي؛ ليحصلوا منك على بعض النقود.

- ...

- خلّها على الله.

- ...

- أستأذنك الآن.. عليّ الذهاب إلى المركز.. أعرف أنك تحب المشي، فلن أعرض عليك الركوب معي.

- ...

- سلام.

- ...

***

أسرع الخطى قليلًا.. أترك الشارع الرئيسي وأتجه إلى الشارع الجانبي، المؤدي إلى الشارع الضيق الذي نقطنه.

بالقرب من بائع الألبان المغشوشة، وقبل المكان الذي تجلس فيه (أم عبده) بائعة الخضر، تكاد تصطدم بي.

- عفوًا لم أرك.

- خيرًا.

- بعد إذنك.. لقد سمعت أن هناك حادثةً، وأن أحدهم قد أصيب أو عضته مجموعةٌ من الكلاب.. هل عندك فكرة عن ذلك؟

- فعلًا.. ولكن انتهى الأمر وذهب كلٌّ إلى حاله.

- ماذا؟ ألا توجد أية إصابات تستوجب التدخل الطبي؟

- لا أعتقد ذلك.

- لدي قطن وشاش ومطهرات.

- لا أظن أن...

- والكلاب؟ ألم تعض أحدًا؟ لدي مصل مضاد لمرض الكَلَب.

- ماذا؟ وكيف...؟ لا.. لم تعض أحدًا.

- حسنًا.. أعود إلى الشارع عل أحدهم يطلب خدماتي، قبل أن أذهب إلى المستشفى.

- حسنًا.. الله معك.

- ألا تريد أنت شيئًا؟ هل تحس أنك بخير؟ أعني هل تريد قياس الضغط، أو قياس معدل السكر في الدم، أو نسبته في البول؟ معي أجهزة وشرائط للفحص في الحقيبة.

- لا.. شكرًا.

- مضادًا حيويًا إذن؟ أدوية للإسهال، للمغص، للصداع، للحساسية؟

- شكرًا لك.. لا أحتاج شيئًا الآن.

- حسنًا.. ولكن إذا احتجت أي شيء، فانظر حولك! ستجدني دائمًا هنا أو هناك.

***

ألقي التحية على (أم عبده).. ترفع يدها السوداء بالتحية.. لا أقول شيئًا.. أسمعها تمصمص شفتيها تعاطفًا.

«بالله عليك يا أستاذ!».. ألتفت، أجد عامل توصيل الشارع أمامي.. يسترسل باستعطاف «ستمر على المحل، أليس كذلك؟».

- أي محل؟

- المحل الذي تقوم فيه السيدة بالبيع من النافذة الكبيرة.

- نعم، هو في طريقي.

- لو سمحت، فضلًا لا أمرًا، من كرم أخلاقك، من...

- ماذا؟ ماذا تريد بالضبط؟

- أرجو أن تخبر السيدة التي تبيع أنني سأتأخر قليلًا.

- أهذا كل ما في الامر؟

- نعم.

- حسنًا.. سأفعل إن شاء الله.

- شكرًا لك.. لقد طلب مني أحدهم توصيل جدته إلى بيتها، وهي سيدة كبيرة وتتحرك بصعوبة.

- حسنًا تفعل.. الناس لبعضها.

- سأذهب الآن لإحضار سيارة خاصة لأنقلها.

- حسنًا.. وهل سأخبر البائعة عن موعد عودتك؟

- قل لها حسب الطريق! غدًا أو بعد غد على أقصى تقدير.

- ماذا؟

- إن (أسوان) بعيدة عن هنا يا أستاذ.

***

أمر على صالون الحلاقة.. أجده جالسًا، كالعادة، أمام الباب وهو يداعب كلبًا ضالًّا.. يهش ويبش عندما يراني.

- يا ألف مرحبًا.. تفضل! تفضل! شعرًا أم لحية؟ أم الاثنين؟ الله أكبر.. شعر ولحية في يومٍ واحد!

- تعرفني منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟

- بالفعل؟

- أسابيع؟ شهور؟ سنين؟

- بل سنين طوال.

- وعبر كل تلك السنين، هلى حلقت عندك يومًا؟

- بصراحة، لا.

- لماذا إذن تفترض أن الأمر سيختلف اليوم؟

- يمكن للإنسان أن يأمل، أن يحلم، أن يتمنى، أليس كذلك؟

- ليس على حسابي.. صباح الخير.

- صباح النور.

- عن إذنك.

- مهلًا! هل من جديد بخصوص البيت؟

- لا.. الأمر على ما هو عليه.

- يحلها الله من عنده.. تفضل! اجلس قليلًا واحكِ لي تفاصيل ما حدث معك في الحي اليوم.. ألم تكن هناك منذ قليل؟

- نعم.

- لدي شاي وقهوة ودومينو وطاولة.. يمكننا اللعب وأنت تحكي ومن يدري؟ لعلك، في النهاية، تقبل أن أقص لك شعرك.

- وعبر كل تلك السنين الطوال، هل جلست معك أمام المحل يومًا؟

- ولا داخل المحل حتى.

- إذن؟

تثار بعض الجلبة أمام العمارة المقابلة.. يضحك فتيان بصوتٍ عالٍ.. ينبح كلب..

تموء قطة ويأخذ حمارٌ في النهيق.

- ما هذا؟ ومن هؤلاء؟ صرت أراهم كثيرًا في الشارع.

- الصغير اسمه (أرنوب)، وهو أرنب محشو قطنًا.. تجده دائمًا متشبثًا بذراع البنت الصغيرة.

- نعم؟

- والبنت هي أخت الولد ذي النظارة.. أما الولد الآخر فهو ابن...

- أعرف الولد الآخر.. هو ابن أستاذ الدور الرابع.

- فعلًا.. والأرنب والبنت وأبو النظارة يقيمون في شقة الأستاذ هذه الأيام.

- لماذا؟ وأين أبوَاهم؟

- يقال إن الأبَ قد تزوج ثانيةً؛ فأصيبت الأم بالجنون، واضطروا إلى إدخالها مستشفى الأمراض العقلية، ويقال بل الأب هو المقيم في المستشفى، وإن الأم تستجم في بلدها في الصعيد.

- وما...؟

- وقيل بل إن الأب قد سافر للعمل، في إحدى الدول العربية منذ فترة، وإن الأم انتهزت الفرصة واستولت على أمواله كلها، ثم طلقت نفسها منه وتزوجت رجلًا آخر، طلقها بعد فترة وجيزة، بعدما استولى على كل أموالها، التي كانت في الأصل ملكًا لزوجها الأول أبي الأولاد، الذي كان قد سافر للعمل في إحدى الدول العربية، فانتهزت الأم...

- نعم؟ ما هذه القصص الغريبة؟

- الأغرب أنه يقال، والعهدة على الراوي، أن الأب قد هرب من البيت، بعد أن اكتشف أن الولد والبنت والأرنب ليسوا من صلبه.. رواية أخرى تقول: بل الأم هي التي اكتشفت، أن الولد والبنت والأرنب ليسوا أبناءها، فتركت الجمل بما حمل.

- أهناك جمل أيضًا؟

- إنه مجرد تعبير.. أعني أنها تركتهم وهربت.

- وما دخل كل هذه القصص بإقامتهم عند الأستاذ؟

- هو قريب لهم من بعيد.

- فعلًا؟

- أو من قريب.

- نعم؟

- قد يكون صديقًا مقربًا.. أو زميلًا.. أو معرفةً.. أو هو مجرد عطف.. أو إحساس بالمسئولية الاجتماعية.. أو لعل...

أتركه يتحدث وأسير مبتعدًا.. ألاحظ أن بعض الكلاب والقطط قد بدأت تتجمع حوله لتستمع باهتمام إلى القصص التي يحكيها.

***

تناديني بصوتٍ مبحوح.. ألتفت.. تتنحنح وتناديني ثانيةً.

- صباح الخير.

- صباح الفل والورد والياسمين.

- هل تريدين شيئًا؟

- بل أسأل إن كنت أنت تريد شيئًا.. أي شيء.

- في الحقيقة، كان هناك أمرٌ يتعلق بك.. ولكني لا أستطيع تذكره تمامًا.. اعذريني أنا في دوامة هذه الأيام.

- أرأيت؟ قلبي دليلي.. وما دمت هنا ما الذي يمكنني إحضاره لك؟

- حسنًا.. ثمن كيلو جبن أبيض، وثمن كيلو حلاوة...

- حلاوة؟ هل ستمر أنت أيضًا على (أم حنفي)؟

- نعم؟ ماذا؟ لا.. أعني.. لا.

- هو لك إذن.

- طبعًا.

- حسنًا.. والآن.. ربع كيلو جبن أبيض، ربع كيلو حلاوة، كيلو لانشون مقسمًا إلى نصف كيلو لانشون دجاج بالزيتون، ونصف كيلو لانشون لحم بالفلفل الأسود.

- ماذا؟ ما هذا؟ لا.. لا.. ثمن كيلو جبن أبيض، وثمن كيلو حلاوة، وثلاثة أرغفة خبز بلدي.. فقط.

- فقط؟

- فقط.

- حسنًا.. هل ستأخذها معك أم أرسلها إلى البيت مع العامل؟

- آخذها معي.

- حسنًا تفعل.. فعامل التوصيل هذا لم يعد كما كان.. أفكر في التخلي عنه والاتفاق مع واحد جديد.

- كما ترين.. فالأمر أمرك.

- بمناسبة البيت، ما هي آخر الأخبار؟

- لا جديد.. قرار الإزالة قائم.

- ولكن، بعد الإزالة، ستقوم ببناء بيتٍ جديدٍ مكانه، أليس كذلك؟

- يعطينا الله طول العمر.. والمال.

- إن الأمر بسيط.. يمكنك الدخول في شراكة مع شخص أمين.. أنت بالأرض والشخص الأمين بالمال.. والكل يستفيد.

- يحتاج الأمر إلى بعض التفكير.

- لا تفكير ولا غيره.. الأمر واضح وضوح الشمس.. أقول مبارك لنا؟

- نعم؟ علام؟

- ماذا؟ لا شيء.. لا شيء.. بالمناسبة، ما دام البيت آيلًا للسقوط، فأين تنام هذه الأيام؟

- كالعادة، في الشقة.. ربك هو الستار.

- ماذا؟ لا.. لا.. إن في الأمر خطورة كبيرة.

- وماذا أفعل إذن؟

- عندي فكرة.. لماذا لا تقيم في إحدى غرف شقتي؟

- ماذا؟

- ولا يهمك.. سأراعيك في الإيجار والحساب يجمع.

- ولكن...

- لعلك تعتقد أنه لا توجد لدي غرف خالية، أليس كذلك؟

- يعني...

- اطمئن! قلت إنني أنوي التخلي عن عامل التوصيل المقيم في الغرفة الخلفية.. يمكنك أن تسكن مكانه.. يصير هذا يوم المنى.

- نعم؟ ولكن...

- بدون (لكن)، وأفكر، ومثل هذا الكلام، الذي لا طائل من ورائه.. توكل على الله وألف مبارك.. هيا!

- ولكن.. مهلًا.. أوتعتقدين فعلًا أن البيت إذا انهار، فإن شقتك لن يحدث لها شيء؟ إن بيتي إذا انهار فسيأخذ الشارع كله معه.

***

أغلق باب السطح ورائي.. يحدث ذلك بعض الجلبة.. ينتبه الجميع.. أسير بضع خطوات، وأبدأ في وضع الحب والماء للطيور.

يندفع الجميع ناحية الطعام والشراب.. الدجاج والكتاكيت والحمام.. وحده الديك الرومي يتجه ناحيتي، وهو يسب ويلعن.. يشير بعصبية إلى أنني قد تأخرت اليوم عن موعدي المعتاد.. أضع أمامه بعض الحب والماء عله يصمت.. ينظر ناحيته، يتناول منه القليل على مضض.. يبدي امتعاضًا واضحًا، وينفجر ثانيةً لومًا وتقريعًا.. هذه المرة للنوعية السيئة للحبوب والمياه.. بصراحة، لا أعرف كيف أرد عليه.

يلاحظ الديك أن عددًا من العصافير تحاول تناول بعض الحب المتناثر هنا وهناك.. يبدي اعتراضًا جليًا على ذلك.. فهو يعلم جيدًا أنها غير مشتركة في هذ الخدمة.. يتجه صوبها وهو يهدد ويتوعد.. أنتهز الفرصة وأبتعد عنه بهدوء، متجهًا ناحية سور السطح.. أستند إلى السور وأطل بحرص على الشارع.. المكان هنا مناسبٌ للتفكير قليلًا.

من مكاني، ألمح البنت التي تعمل في المطعم، وهي تدخل إلى شقة الطابق الأرضي.. أتذكر الآن أنها هي صاحبة واقعة خلع الحذاء، لرجل الكلاب الراقص فوق السيارة عند الإشارة.

على بعد خطواتٍ منها أرى الأستاذ المدرس، وهو يتحدث أمام المركز إلى بعض الطلبة، موضحًا لهم أن بقية اليوم إجازة، بمناسبة مباراة الأهلي والزمالك.. أسمع، من مكاني، صوته واضحًا وهو يحثهم على التنبؤ بنتيجة المباراة، والرهان عليها بالنقود المخصصة لدرس اليوم.

السيدة ابنة الحاجة المزواج، تقوم بشراء ما يلزمها من (أم عبده) ومن بائعة البقالة.. من ملاحظة مشترياتها، أعتقد أنها ستقوم بعمل محشي لنصف الشارع.

في الشرفة يقوم مفتول العضلات باستعراضاته الرياضية، وطبعًا يفعل ذلك مرتديًا ملابسه الداخلية فقط.. ألاحظ وجود متلصصين ومتلصصات خلف معظم نوافذ الشارع.

عامل التوصيل يدخل ويخرج من الشارع أكثر من مرة.. عمارة واحد، عمارة رقم ثلاثة، الشارع المجاور، الشارع المقابل، آخر دور، الدور الأرضي، الدور الأخير.. ثم أراه وهو يحمل سيدة مسنة خارجًا بها من العمارة المجاورة.. يقوم، بعد ذلك، بمساعدتها على ركوب سيارةٍ خاصة كان قد جاء بها منذ قليل.

البنت الخادمة تقف في الشرفة مع السَّجاد والمنفضة، ثم مع المكنسة، ثم مع الممسحة والدلو.. يخترق أذني صوت سيدتها، وهي تطلب منها كوب شاي، فشطيرة، فطماطم، فزيتونًا، فبسكويتًا، فجوربًا، فقناة المسلسلات، فلبن العصفور.

يطل الولد التلميذ إياه من النافذة، وبجواره البنت الصغيرة وأرنبها.. يشير الجميع إلى الولد الآخر أبي النظارة.. يصيح الولد الأول لأبي النظارة وهو يشير إلى المدرس: «الأهلي 1 - 2».. تصيح البنت: «الزمالك واحد صفر».. يصيح الأرنب المحشو: «تعادل ثلاثة ثلاثة».

تخرج الممرضة من بيت إلى بيت.. تفعل ذلك خمس مرات.. تكاد تصطدم مرتين منهما بعامل التوصيل.. تخرج في المرة الأخيرة من بيتها وقد ارتدت ملابس العمل البيضاء.

الحلاق، على حاله، جالس أمام المحل.. ما يزال يحكي حكاياته واحدةً وراء الأخرى.. لم يتبق من مستمعيه سوى القط الأسود والقطة المشمشية.. أعرف هذين جيدًا؛ لأنهما يحاولان دائمًا صيد أية حمامةٍ من حمائم السطح.. حتى الآن ما يزال الفشل الذريع يلاحقهما كلما حاولا ذلك.

تطل البائعة من نافذتها.. تنظر إلى الأعلى.. تراني.. تشير إليّ ثم تقول بصوتٍ عال: «لقد أنهيت ترتيب الغرفة.. فكر فيما قلته لك! في الانتظار!».

***

تهتز ساقاي، فجأة.. أعتدل مكاني.. أحاول الحفاظ على توازني..أحكم قبضتي على سور السطح.. تهتز ساقاي أكثر.. أضطرب.. أبدأ في التأرجح يمينًا ويسارًا.. أنظر حولي بذعر.. تتصاعد الأتربة هنا وهناك.. أسمع أصواتًا لا تُطمئن.

يطير الحمام بعيدًا في فزع.. يحوم حول السطح من بعيد محاولًا فهم ما يحدث.. يجري الدجاج هنا وهناك.. يحاول الطيران بعيدًا لكنه يتذكر أنه دجاج.. يستمر في الجري والتخبط.. يبحث الديك الرومي عني.. يراني.. يندفع ناحيتي وقد احمر وجهه.. يزداد الاهتزاز.. تتصاعد الأتربة أكثر.. يفقد الديك توازنه ويرتطم بالحائط.. ينعق بصوتٍ عال مهددًا متوعدًا.. تسقط فوقه بضعة أحجار.. لا أسمع له صوتًا بعد ذلك.

أحاول التوجه إلى باب السطح.. أصل إليه بصعوبة.. أحاول فتحه.. لا أستطيع.. أحاول ثانيةً.. لا فائدة.

يعلو نباح الكلاب في الشارع.. تموء كل قطط المنطقة.. ينهق الحمار بأقصى ما لديه من قوة.. تصرخ جميع حيوانات الغابة.. تتعالى استغاثات السكان والشارع والحي كله.. أستمر في محاولة فتح الباب.. أنتبه إلى أنني، في الغالب، سأصل إلى الطابق الأرضي بطريقٍ آخر غير طريق الدرَج.

يتطور الأمر بسرعة من سيئ إلى أسوأ.. أبدأ في استيعاب ما يحدث حولي.. أركز.. أتمالك نفسي.. أستجمع قواي.. أستحضر عزيمتي.. أتوكل على الله، ثم وبكل ما أوتيت من قوة، وبكل ما أملك من مقدرة، أصرخ بأعلى صوتي مع الصارخين.

***

[النهايـــة]

Telegram:@mbooks90